المملكة العربية السعودية
وزارة التربية والتعليم
التطوير التربوي

وزارة التربية والتعليم
MINISTRY OF EDUCATION

قررت وزارة التربية والتعليم تدريس
هذا الكتاب وطبعه على نفقتها

البلاغة والنقد

للصف الأول الثانوي
الفصل الدراسي الأول

طبعة
١٤٢٨هـ - ١٤٢٩هـ
٢٠٠٧م - ٢٠٠٨م

ح وزارة التربية والتعليم ، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السعودية – وزارة التربية والتعليم
البلاغة والنقد : المرحلة الثانوية – الصف الأول – الرياض .
٨٨ ص – ٢١ × ٢٣ سم
ردمك ١-٣٣٠-٠٩-٩٩٦٠ (مجموعة)
×-٣٢٨-٠٩-٩٩٦٠ (ج١)
١ – البلاغة العربية – كتب دراسية
٢ – السعودية – التعليم الثانوي – كتب دراسية أ– العنوان
ديوي ٠٧١٢, ٤١٤ ١٦/٢٣٧٣

لهذا الكتاب قيمة مهمة وفائدة كبيرة فلنحافظ عليه ولنجعل نظافته تشهد على حسن سلوكنا معه ...

إذا لم نحتفظ بهذا الكتاب في مكتبتنا الخاصة في آخر العام للاستفادة فلنجعل مكتبة مدرستنا تحتفظ به ...

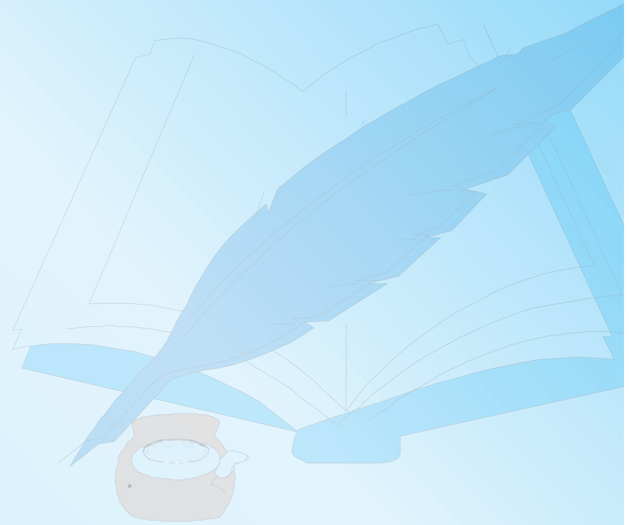
موقع الوزارة
www.moe.gov.sa
موقع الإدارة العامة للمناهج
www.moe.gov.sa/curriculum/indes.htm
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للمناهج
curriculum@moe.gov.sa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وبعد ، فهذا كتاب في مبادئ البلاغة والنقد ، حسب المنهج الذي أقرته وزارة التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية. وقد روعي فيه ما نصت عليه أهداف هذا المنهج من إقدار الطالبات على فهم أسرار الإعجاز في القرآن الكريم ، وإدراك صفات الجمال في الحديث النبوي الشريف ، وتذوق ألوان الفن فيما يقرأنه من النصوص الأدبية الجيدة . ولذلك جعلنا هذا الكتاب قائماً على تحليل النصوص ، و خلصناه من القواعد الجافّة التي نفّرت معظم الناشئين من دراسة البلاغة ، واجتهدنا أن نعيد هذا العلم من علوم العربية إلى ما كان عليه في عصوره الزاهرة ، علماً أدبياً أساسه إدراك الجمال ، وغايته تربية الذوق . فاستلهمنا آثار المتقدمين من علماء الأدب أمثال الجاحظ والمبرد وابن قتيبة والآمدي وأبي هلال العسكري والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، واعتمدنا على التراث الضخم الذي خلَّفه إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (المتوفى سنة ٤٧١هـ) ، دون أن نغفل آراء معاصره ابن سنان الخفاجي ، وبخاصة فيما يتعلق بالجمال الصوتي في الألفاظ ، ثم استعنا بجهود المتأخرين من علماء البلاغة ؛ أمثال السكاكي والقزويني ، في التنظيم والتبويب ، متجنبين شروحهم المنطقية التي أبعدت هذا العلم عن روائه الأول ، وحاولنا - وراء ذلك كله - أن يكون هذا الكتاب وليد عصره ، فتجد الطالبات بين نماذجه الأدبية صوراً من الأساليب الحديثة في الشعر والنثر ، كما يجدون في طريقته التعليمية لوناً من المناقشة يفتح أذهانهن ، ويوسع أفقهن ، ويعينهن على الاستنباط ، ويحفزهن إلى التأمل في النص الأدبي تارة ، وفي أعماق مشاعرهن تارة أخرى ، باحثات عن سر هذه الهزَّة الممتعة التي يحدثها الأثر الأدبي الجميل.

والله نسأل أن ينفع به ، وأن يكتبه لنا عملاً صالحاً .



الفصل الدراسي الأول

القسم الأول

مقدمات

نماذج من الكلام البليغ

(١) قال الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن
رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ
﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ
هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ
ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ (١)
يَعۡمَهُونَ (٢) ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ
﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ
لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١ - ١٧]

---

(١) ضلالهم الشديد.
(٢) يتخبطون .

(٢) وقال تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا(١) ۝٤
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا(٢) ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا(٣) ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا(٤) ۝١٠﴾ [الشمس: ١ - ١٠]

(٣) قال رسول الله ﷺ : «**بادروا بالأعمالِ الصالحةِ ، فستكونُ فِتَنٌ كقطعِ اللَّيْلِ المُظلِمِ ، يُصبحُ الرجلُ مُؤمِناً ويُمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً ، يبيعُ دينَهُ بِعَرَضٍ(٥) من الدنيا**»

أخرجه مسلم وأحمد والترمذي.

(٤) قال حُمَيْدُ بن ثَوْرٍ الهلاليّ(*) :

وما هاجَ هذا الشوقَ إلا حمامةٌ ... دعَتْ ساقَ حُرٍ(٦) تَرْحَةَ وترنُّما
تروحُ(٧) عليه والهاً ثمَّ تغتدي(٨) ... مُولَّهةً(٩) تبغي لهُ الدهرَ مَطْعَما
تُؤَمِّلُ فيه مؤنساً لانفرادها ... وتبكي عليهِ إنْ زَقَا أوْ ترنَّما
فلمّا اكتسى الريشَ السُّحامَ(١٠) ولم تجِدْ ... لها معَهُ في ساحةِ الحَيِّ مَجْثَما(١١)
تَنَحَّتْ قريباً فوقَ غُصنٍ تذأَّبَتْ(١٢) ... به الريحُ صَرْفًا أيَّ وَجْه تَيَمَّما(١٣)
فأَهْوَى لها صَقْرٌ مُسِفٌّ(١٤) فلمْ يَدَعْ ... لها ولداً إلاَّ رِماماً وأعْظُما
فأوفَتْ على غُصْنٍ ضُحَيّاً ولم تدعْ ... لنائحةٍ في نَوحِهَا مُتَلَوَّما(١٥)

(*) الهلالي : شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم.
(١) يغطيها.
(٢) بسطها.
(٣) أنماها.
(٤) نقصها وأخفاها.
(٥) متاع.
(٦) ساق حر : اسم لفرخ الحمام.
(٧) ترجع في المساء.
(٨) تخرج في الصباح.
(٩) والها ومولهة: شديدة الشوق واللهفة.
(١٠) الأسود، أي كبر قليلاً.
(١١) مكاناً يصلح لإقامتهما.
(١٢) هبت في اتجاهات متغيرة كما يمشي الذئب.
(١٣) أي اتجاه تقصد.
(١٤) هابط.
(١٥) انتظاراً للمزيد.

عَجِبْتُ لها أنَّى(١) يكونُ غناؤُها ... فصيحاً ولم تفغرْ(٢) بمنطقِها فَمَا

فلم أرَ مثلي شاقَهُ صوتُ مِثْلِها ... ولا عَرَبِيّاً شاقَهُ صوتُ أعجما

(٥) قال كشاجم (*) في وصف الثلج :

الثلجُ يسقُطُ أم لُجَيْنٌ(٣) يُسْبَكُ ... أم ذا حَصَى الكافورِ ظَلَّ يُفَرَّكُ

راحتْ به الأرضُ الفضاءُ كأنها ... في كلِّ ناحيةٍ بثغرٍ تضحكُ

شابَتْ مفارِقُهَا(٤) فَبَيَّنَ ضِحْكُها ... طَوراً وعهدي بالمشيبِ يُنسِّكُ(٥)

أَربى(٦) على خُضْرِ الغصون فأصبحت ... كالدُّرِّ في قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ يُسْلَكُ

وتَردَّت الأشجارُ منه مُلاءةً ... عما قليلٍ بالرياحِ تُهَتَّكُ

كانَتْ كعودِ الهندِ طُرِّيَ فانْكَفَا ... في لونِ أبيضَ وهو أسودُ أَحْلَكُ

والجوُّ من داجِي(٧) الهواءِ كأنَّهُ ... خِلَعٌ(٨) تُعَنْبَرُ تارةً وتُمَسَّكُ

(*) كشاجم : من شعراء القرن الرابع، اشتهر بالوصف.

(١) كيف.

(٢) تفتح.

(٣) فضة ذائبة.

(٤) أعلى الرأس حيث يفرق الشعر.

(٥) يجعل الإنسان ناسكاً، والناسك هو العابد الزاهد.

(٦) علا.

(٧) مظلم.

(٨) ثياب.

صفـــات الـكـلام الـبـلـيـغ

١- حروفــه وكلماتـــه

إذا قرأت النماذج السابقة قراءة أولى ، وجدت لها تأثيراً في نفسك لعلّك لا تتبينينه بوضوح ، ولكنك تشعرين أنك منجذبة إليها بحواسك ، متطلعة إليها بذهنك ، وإذا تأملت قليلاً في سر ذلك التأثير المباشر وجدت أنه راجع إلى تناسق الجمل في الفقرة ؛ وتناسق الحروف في الجملة ، فهذا التناسق الصوتي هو أولَ ما تدركينه من جمال التعبير .

إنك لا تجدين في هذه النماذج كلمة واحدة مثل كلمة «الهُعْخُع» في قول الأعرابي الذي زعموا أنه سُئِلَ عن ناقة فقال «تركتها ترعى الهُعْخُع» ؛ بل على العكس تجدين الأصوات متناسبة فيما بينها ، يلذ الأذنَ تتابعها ، كما يستريح اللسان حين ينتقل بينها ، ولا سيما الآيات الكريمة ، فإن فيها من تآلف الحروف ما يعجز البشر عن مثله .

ثم إنك تلاحظين في تلك الآيات الكريمة تناسباً معجزاً بين الأصوات من ناحية ، والموضوع من ناحية أخرى ، فآيات سورة « البقرة » متوسطة الطول ، ذات نغمات وئيدة تناسب موضوعها ، وهو تفصيل أحوال الفئات الثلاث : المؤمنين والكفار والمنافقين . وآيات سورة « الشمس » قصيرة سريعة لافتة ، تناسب موضوعها وهو اللفت الشديد إلى آيات الله في خلق الكون والإنسان .

فتناسق الأصوات شرط أول من شروط الجمال في اللغة ، وهو درجات متفاوتة ، أدناها البعد عن تنافر الحروف ، وأعلاها التناسب بين الأصوات والمعاني.

وإذا انتقلت من التناسق الصوتي الذي هو أول ما يطرق سمعك من هذه النماذج إلى المعاني الجزئية للكلمات وهو أول ما يسترعي انتباهك ، ولاحظت ما بين هذه المعاني من التناسب والتقارب والتقابل :

(١) يوقنون - لا يؤمنون ، أأنذرتهم - أم لم تنذرهم ، الضلالة - الهدى .

(٢) الشمس - القمر ، النهار - الليل ، السماء - الأرض .

(٣) يمسي - يصبح ، مؤمناً - كافراً ، الدين - الدنيا .

(٤) مؤنساً - انفرادها ، عربياً - أعجمياً .

(٥) ضحك - نسك ، أبيض - أسود .

فمراعاةُ العلاقات بين الألفاظ من حيث المعنى ، سمَةٌ من سمات الجمال اللغوي تُضاف إلى تناسق الأصوات ومناسبتها للمعاني . « والتناسق » يمكن أَن يرجع إلى التضاد كما يرجع إلى التماثل . كما هو الشأن في تنسيق الألوان في باقة من الزهر ، فترين المنسِّق يقرن بين الأزرق والأصفر مثلاً ، بينما يتعمد تكرار كل واحد من اللونين الأزرق والأصفر . وكذلك ترين المزخرف يصنع بالألوان والأشكال الهندسية .

٢- جملــه وتراكيبــه

إذا أمعنت النظر في هذه النماذج لتصلي إلى معانيها الكاملة ، فإن أول ما تلاحظينه : هو استقامة تركيب الجمل ، ووضوح دلالتها على المعنى . فلن تجدي هنا شيئاً من ذلك الشذوذ الذي تحدَّث عنه النحويون في تركيب الجملة ، من مثل قول الشاعر :

جـــزى ربُّـــه عني عَـــدِيَّ بنَ حـــاتِمٍ   جـــزاءَ الكلابِ العـــاويات ، وقـــدْ فَـــعَلْ

فهذا تركيب شاذ لأن الضمير في « ربه » (الهاء) يعود على عدّي بن حاتم ، والأصل في الضمير أن يعود على اسم متقدَّم لا على اسم[1] متأخر .

(١) يمكن أن يكون «التقدم» في الرتبة دون اللفظ، كما في قوله تعالى : «فأوجس في نفسه خيفة موسى» فالضمير في «نفسه» يعود على «موسى» المتأخر لفظاً، ولكن موسى هو الفاعل ، فهو متقدم رتبة على الجار المجرور.

وإذا أمعنت النظر أكثر في هذه النماذج ، وجدت التراكيب تتنوع لتزيد المعنى قوة وتأثيراً . فإذا تأملت حكاية المنافقين في سورة « البقرة » (النموذج الأول) وجدت تصويراً لخبثهم ووقاحتهم في تعبيرهم بأسلوب الاستفهام حين يُدْعَون إلى الإيمان فيقولون : «أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ » . كما تجدين تنوعاً في طريقة كلامهم للمؤمنين وطريقة كلامهم لشياطينهم من الكفار، فهم يقولون للمؤمنين «آمَنَّا» ، كلمة واحدة يقولونها دون حماسة ، وكأنهم يحاولون الإيهام بأن ذلك أمر ظاهر معروف. أما إذا خَلَوْا إلى شياطينهم ، وأمنوا أن يسمعهم أحدٌ من المؤمنين ، فهم يستعملون الجملة الاسمية مؤكدة بإن : « إنّا معكم » ، ولا يكتفون بذلك ، بل يكررون المعنى بعبارة أخرى : « إنما نحن مستهزئون » . ونستشف من هذه التراكيب تأصّل الكفر في نفوسهم ، وحرصهم على إرضاء شركائهم من الكافرين، وشعورهم بأن هؤلاء الشركاء يتهمونهم ويرتابون فيهم ، إذا كان الأمر بينهم قائماً على المنافع المتبادلة ، وهذه حال لا يصح معها ود ، ولا تقوم ثقة.

فاختيار التراكيب اللغوية شرط ثان لجودة الكلام وقوة تأثيره . ولا يكفي أن يكون التركيب صحيحاً ، أي خالياً من الخطأ والشذوذ ، بل يجب أن يكون مؤدياً للمعنى على نحو دقيق بحيث يصور حالة المتكلم، وحالة السامع ، ونظرة كل منهما إلى موضوع الكلام.

٣ - صـــوره وأخيلتـــه

إذا تأملت المعاني التي تؤديها هذه النماذج ، وجدتها قد عُرضت في صور تلفت الذهن، وتثير الخيال ، وتجعل الفكرة كأنها حاضرة أمام الحس. كتصوير الكفار بأن الله سبحانه وتعالى قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، فلا ينفذ إليها شيء من العظات وأن على أبصارهم غشاوة ، فهم لا يرون الحق . وتمثيل المنافقين الذين لاح لهم الحق ، ولكنهم مالبثوا أن أعرضوا عنه، بمن أوقد ناراً حتى إذا سطع نورها على الأشياء من حوله أطفأ الله ذلك النور فارتدّ إلى الظلام الدامس.

ومثل تلك الصور الخيالية التي رسمها حميد بن ثور للحمامة، فقد كانت آنسة بفرخها شديدة

الحدب عليه ، والحب له ، فلما كبر واكتسى الريش الأسود هاجرت به إلى موطن جديد ، طامعة أن يكون أكثر خصباً وليناً ، وإذا بصقر ينقضّ على فرخها فلا يترك منه إلا العظم والريش . فهذه قصة أوحى بها هديل الحمامة إلى الشاعر المحزون ، وكأنما نسج قصتها ليعبر عن شعوره بالفقد الموجع.

والمعاني التي يثيرها الثلج في ذهن كشاجم تأخذ أشكالاً شتى ، فهو تارة فضة ذائبة ، وتارة شعر أشْيَبَ على وجه ضاحك ، وتارة ملاءة لا تلبث أن تهتكها الريح . ومن اختلاف هذه الصور فإنها تعبر مجتمعة عن التذاذٍ بمنظر سقوط الثلج.

فالربط بين الأشياء المتباعدة بقوة الخيال، مع تصوير المعنى في صورة ماثلة للحس، صفة ثالثة من صفات الجمال اللغوي.

تأملي الفرق بين رسم تخطيطي ساذج ، ولوحة فنية ذات ظلال وألوان ، يعطيك الشعور بالقرب والبعد ، ونعومة الملمس أو خشونته ، وصلابة المادة أو هشاشتها فكذلك الفرق بين كلام خال من تلك الصور الخيالية ، وكلام يعتمد عليها في أداء معناه .

نخلص مما سبق : إلى قوة تأثير الكلام في النفس – وهي ما نسميه بلاغته أو جماله – ترجع إلى جميع العناصر التي يتألف منها الكلام ، وإلى طريقة تركيب هذه العناصر .

فللحروف وأصواتها قيمة في البلاغة .

وللكلمات ومعانيها قيمة .

ولطريقة تركيب الكلمات في الجمل قيمة .

وللصور الخيالية التي تثيرها الكلمات المركبة في الجمل قيمة كذلك.

ولكن وراء هذا كله عاملاً أعظم قيمة .

وقبل أن نتكلم عن هذا العامل ، نعرض عليك نموذجين تحاولين أن تتبيني صفات البلاغة فيهما ، على نحو ما رأيت في النماذج السابقة .

نموذجـــان للمناقشـة

(١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أوصيكم بأربع ، لو ضربْتُم إليها آباطَ الإبلِ[١] كُنَّ لها أهلاً : لا يرجُوَنَّ أحدٌ مِنْكُم إلا رَبَّه ، ولا يخافنَّ إلاَّ ذنْبُه، ولا يستحي أحدٌ إذا سُئِل عمَّا لا يعلم أن يقولَ لا أعلمُ ، ولا إذا لَمْ يعلَمْ الشيءَ أن يتَعَلَّمَه. وإنَّ الصَّبْرَ من الإيمَانِ بمَنْزِلَةِ الرأسِ من الجسدِ ، فإذا قُطِعَ الرأسُ ذَهَبَ الجسدُ ، وكذلك إذا ذَهَبَ الصبْرُ ذهبَ الإيمانُ .

(٢) قال امرؤ القيس بن حِجْر الكنديْ * :

أرانا مُوضِعينَ[٢] لأمرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشَّرابِ
عَصافيرٌ وذِبَّانٌ ودودٌ ... وأجْرأُ من مُجلَّحَةِ[٣] الذِّئابِ
فَبَعْضَ اللومِ[٤] عاذِلَتي فإني ... ستكْفِيني التجاربُ وَانْتِسَابِي[٥]
إلى عِرْقِ الثَّرى[٦] وشَجَتْ[٧] عروقي ... وهذَا المَوتُ يَسلبُني شَبابي

(*) الكندي : أشهر شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين.
والباقون ثلاثة وهم : زهير ، والنابغة الذبياني ، والأعشى.
(١) أي لو سافرتم مسافات بعيدة لتتعلموها ما كان ذلك كثيراً عليها.
(٢) مسرعين .
(٣) الجريئة من الذئاب.
(٤) قللي اللوم.
(٥) نسبي والبيت الثاني يشرح المقصود بهذا النسب.
(٦) أصل التراب .
(٧) اتصلت واشتبكت .

نموذجان آخران

(١) قال ابنُ المعتز يصفُ البعوض* :

بتُّ بجَهْدٍ[١] ساهرَ الأجفانِ ... يلدغُ جلْدي شَرَرُ النِّيرانِ
مِنْ طائرٍ زَمَّرَ في الآذانِ ... من الدِّماء مُتْرَعٍ[٢] ملآنِ

(٢) قال البهاء زهير** :

ولي فَرَسٌ أنت العليمُ بحالِها ... وبالرغم مني ربطُها ومُقامُها
ولمْ يُبْقِ منها الجَهدُ إلا بقيةً ... فيغدو عليها أوْ يروحُ حمامُها[٣]
شكتْني لكلِّ الناسِ وهْيَ بَهيمةٌ ... ولكنْ لها حالٌ فصيحٌ كلامُها
إذا خرجَتْ تحتَ الظلامِ فلا تُرَى ... من الضعْفِ إلا أنْ يُصَكَّ لِجَامُها
وليستْ تراها العَيْنُ إلَّا عباءَةً ... يُشَدُّ عليها سَرْجُها وَلِجامُها
لها شَرْبَةٌ في كلِّ يومٍ على الطَّوَى ... ولو تركَتْها صَحَّ منها صيامُها
وعَهْدي بها تبْكي على التِّبْنِ وحْدَهُ ... فكيفَ على فقدِ الشَّعيرِ مُقامُها !

(*) ابن المعتز : شاعر عباسي من بيت الخلافة. عاش في القرن الثالث الهجري.

(**) البهاء زهير : من شعراء القرن السابع الهجري. ولد في الحجاز وأقام في مصر. اشتهر برقة شعره وحلاوة دعابته.

(١) بتعب .

(٢) ملآن .

(٣) موتها .

تأملي النموذج الأول من هذين النموذجين الأخيرين . ماذا ترين فيه من حيث تناسق الحروف والكلمات ، ومن حيث وضوح التراكيب ومناسبتها للمعنى ، ومن حيث الصور التي يثيرها الكلام في خيالك ؟

لعلك تلاحظين أنه يبلغ درجة طيِّبة من ذلك كله .

ولكنك إذا وازنت بينه وبين النماذج السابقة ، شعرت باختلاف شديد . فما منشأ هذا الاختلاف؟

قبل أن تجيبي على هذا السؤال ، تأملي النموذج الثاني .

لعلك تلمحين اختلافا بين هذا النموذج وسابقه ؛ ولكن الاختلاف الأشد هو ذلك الذي يمكنك أن تلاحظيه بينهما معاً وبين النماذج التي مرت بنا فيما سبق.

نموذج ابن المعتز فيه وصف دقيق، ونموذج البهاء زهير فيه مبالغة في الوصف تثير الضحك ، والنموذجان يمكن أن ينالا إعجاب القارئ بما فيهما من براعة الوصف أو حلاوة الدعابة ؛ ولكنهما لا يثيران في نفسه تلك الروعة التي يَشعُرُ بها حين يقرأ النماذج التي مرت بنا في الدروس السابقة . ولا شك أن تلك الروعة راجعة إلى المعنى . فالمعاني تتفاوت تفاوتاً شديداً من حيث طبيعتها ومن حيث قيمتها ؛ فهناك معان جادة ومعان هازلة ؛ وهناك معان سامية لأنها تفتح عيوناً على حقائق الكون ووجود الإنسان فيه ، ومعان مؤثرة لأنها تتناول عواطف النفس البشرية وميولها ، ومعان عادية لا تتعمق مظاهر الوجود أو عواطف النفس . والقارئ يشعر حين يَرِدُ عليه المعنى الجليل بهزة لا يجد مثلها أو ما يقرب منها إزاء معنى سطحي لا يتجاوز تجارب الحياة العادية .

وإذا تأملت آيات ا لقرآن الكريم شعرت بإعجاز المعنى كإعجاز العبارة . ارجعي إلى النموذج الأول في هذا الكتاب ؛ فآيات سورة « البقرة » تصوير دقيق كامل للمؤمن والكافر والمنافق ، وتصوير يشمل السلوك الظاهر والشعور الباطن . وآيات سورة « الشمس » (ص٩) تنبيه معجز إلى تناقض

الدوافع الإنسانية ، وربط لهذا التناقض بمتناقضات أخرى في الوجود : الليل والنهار ، والسماء والأرض ، مع إشارة دقيقة المعنى ، عميقة الإيجاز ، إلى أن هذا التناقض نفسه دليل الحكمة البالغة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾[1] فالتسوية تدل على خَلْقٍ حكيم ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ ﴾[2] وقد اقتضت حكمة هذا الخلق أن يودع الخالق سبحانه وتعالى في الإنسان نوازع الخير والشر : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فقيمة الكلام ترجع أولاً إلى معناه ؛ غير أن هذا المعنى نفسه لا تَتَّضِح قيمته إلا من خلال صياغة محكمة . والمعنى هو ما يعبر عنه النقاد المعاصرون بكلمة «المضمون» ، والصياغة هي ما يعبرون عنه بكلمة « الشكل» . والشكل والمضمون يتَّحدان كما يتحد الجسم والروح . فالمعنى يظل حائراً في نفس صاحبه حتى يجد الشكل الذي يناسبه من الألفاظ المرتبة على نحو معين . وذلك يظل غامضاً في نفس قارئه حتى تتضح له العلاقات بين الألفاظ التي صِيغ فيها هذا المعنى.

وعلوم البلاغة هي العلوم التي تتناول صياغة المعنى في الألفاظ المناسبة .

أما بحث المعاني نفسها فمن الواضح أنه لا يمكن أن يحيط به علم واحد أو علوم معدودة ، لأن المعاني ترجع إلى الثقافة والتجربة والذكاء ، وهذه الثلاثة لا يمكن أن تُحصر .

وصياغة المعنى في الألفاظ المناسبة هي ما يعبر عنه في كتب البلاغة «بمطابقة الكلام لمقتضى الحال» .

وإذا راجعنا ما قلناه عن الصياغة في الملاحظات السابقة ، متدرجين من المعنى الذي هو الغاية من

---

(١) سورة الشمس

(٢) سورة الأنبياء : ١٦

التعبير اللغوي ، حتى نصل إلى الألفاظ التي هي واسطة ذلك التعبير ، وجدنا أن مباحث البلاغة تنقسم إلى الأقسام التالية :

أولاً : دراسة الصور الخيالية التي تعبر عن المعنى . ونقصد « بالخيالية » أمرين :

أولها أن هذه الصور تعقد صلة بين شيئين ربما لا تكون بينهما صلة في الواقع .

والثاني : أن هذه الصور تتمثل للخيال ، أي أنها تثير في الذهن ذكريات تجارب محسوسة .

ودراسة الصور الخيالية هي موضوع أحد علوم البلاغة ، وهو « علم البيان » :

ثانياً – دراسة خصائص التراكيب اللغوية من حيث دلالتها على المعنى . ويدخل تحت المعنى كل ما يتعلق بحالة المتكلم أو الكاتب ، وموقفهما من السامع أو القارئ ، وحالة السامع أو القارئ، وموقفهما من المتكلم أو الكاتب ، وموقف جميع هؤلاء من الموضوع الذي يساق فيه الحديث ؛ وهذا هو ما يُعبَّر عنه في البلاغة « بمقتضى الحال » . وموافقة التراكيب لمقتضى الحال هي موضوع العلم الثاني من علوم البلاغة ، ويسمى « علم المعاني » .

ثالثاً : دراسة خصائص الألفاظ من حيث التناسق الصوتي أو المعنوي . والتناسق يمكن أن يرجع إلى التضاد كما يرجع إلى التماثل . وهذا موضوع العلم الثالث من علوم البلاغة ويسمى « علم البديع » .

وبعض علماء البلاغة يجعل البديع علماً إضافياً بالنسبة لعلمي المعاني والبيان، أي أن هؤلاء يرون أن البلاغة تنحصر في علمي المعاني والبيان ، لأنهما في نظرهم، يستوفيان قواعد التعبير عن المعنى بطريقة دقيقة واضحة. فعلم المعاني يعلمنا اختيار التركيب اللغوي المناسب للموقف (أو ما يسمونه مقتضى الحال) ، وبذلك تتحقق لنا إصابة المعنى .

وعلم البيان يعلمنا كيفية أداء هذا المعنى بطرق مختلفة من حيث درجة الوضوح أو القوة ، فما

بقي بعد ذلك من أمور تتعلق بالتنسيق أو الانسجام الصوتي أو المعنوي فهو زينة إضافية يمكن أن يستغني عنها البليغ . وقد أسلفنا أن الميل إلى التناسق بنوعيه – التضاد والتماثل – ميل طبيعي في الإنسان ، ولكن هذا الفريق من علماء البلاغة غضُّوا من شأن البديع نظراً لإسراف الشعراء والناثرين في العصور المتأخرة في استخدام بعض الألوان البديعية ، والإسراف معيب دائماً . فأحب علماء البلاغة للشعراء والناثرين أن يلزموا جانب القصد والاعتدال ، منبهين إياهم إلى أن دقة المعنى ووضوحه يجب أن يوضعا في المحل الأول من الاهتمام ، وسيتضح ذلك حيث ندرس بعض الألوان البديعية.

الفصاحة والبلاغة

تصادفنا كلمة وثيقة الصلة بكلمة البلاغة ، وهي كلمة «الفصاحة» . ولذلك يحسن بنا أن نميز بينهما ، وإن كان من المؤلفين من يستخدم الكلمتين بمعنى واحد .

إذا تأملنا قليلاً وجدنا أن كلمة « بلاغة » تنتمي إلى أسرة من الكلمات غير تلك التي تنتمي إليها كلمة « فصاحة » ؛ فمن أقرباء البلاغة « بَلَغَ » أي وصل إلى الغاية ، و « بَلَّغَ » أي أوصل إليها ، و «بَالغ » أي تجاوزها . **فالبلاغة إذن هي إيصال المعنى كاملاً** . والكلام البليغ هو الذي تتوفر له هذه الصفة ؛ والإنسان البليغ هو الإنسان المتَّصِف ببلاغة التعبير . وعلوم البلاغة هي مجموعة من القواعد المستخلصة من نماذج الكلام البليغ ، على ما فصلناه فيما سبق .

أما كلمة « فصاحة » فمن أقربائها : « أفصح اللبن » أي انجلت رغوته فظهر ، و «أفصح فلان » أي أظهر ما في نفسه . ويقال « فَصُحَ اللحّان »[1] إذا عَبَّر عما في نفسه وأظهره دون خطأ .

وقد مرَّ بنا في النماذج السابقة قول حميد بن ثور الهلالي في قصة الحمامة :

عجبت لها أنَّى يكون غِناؤُها فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها فما

فلم أرَ مثلي شاقَهُ صوتُ مثلها ولا عربياً شاقَهُ صوت أعجما

فالفصاحة تعني إظهار المعنى بالألفاظ الصحيحة . وذلك يشمل :

(١) سهولة النطق بالكلمة : فكلمة « الهعخع » كلمة غير فصيحة لصعوبة الانتقال بين حروفها.

---

(١) اللحان : الكثير اللحن ، وهو الخطأ في اللغة .

وربما نشأ من تكرار بعض الكلمات في الجملة أو البيت ثقل على اللسان ونبوٌّ في الأذن ، كما يعيب على المتنبي قوله :

فـقَلْقَلْتُ [1] بالهمِّ الذي قَلْقَلَ الحـشـا قَـلاقِـلَ عِـيسٍ [2] كلُّهـنَّ قُـلاقِـلُ

(٢) وضوح معنى الكلمة : فكلمة «الهعخع» غير فصيحة لسبب ثان وهو أنها من الكلمات الغريبة المهجورة . ومثلها في الغرابة وإن تكن سهلة النطق كلمة « الهَجَنَّع » بمعنى الطويل الضخم .

(٣) صحة الكلمة : فما دمنا نكتب العربية أو نتكلم بالعربية ، فيجب أن نتجنب الكلمات العامية التي تعد خطأً بمقاييس اللغة الصحيحة . فالناس يكتبون مثلاً على ظروف الرسائل كلمة «الراسل» وهي خطأ ، وصوابها « المرسل » [3] .

(٤) سلامة التراكيب : فلو قلت مثلاً : « من الخطأ إسراعُ عند الدوران السائقين » لم يكن هذا التركيب فصيحاً ، لمخالفته إحدى قواعد العربية في ترتيب الكلمات (عدم الفصل بين المضاف والمضاف إليه) .

وقد يكتب الإنسان كتابة فصيحة مستوفية لهذه الشروط كلها ، ولكنه إذا أراد إلقاء خطبة عجز عن إلقائها إلقاءً سليماً مفهوماً ، إما لسوء نطقه ، وإما لأنه يخطئ مواقع الوقف ، وإما لنحو ذلك ، فيقال إنه كاتب فصيح ولكنه ليس خطيباً فصيحاً.

وليس عندنا علم خاص يسمَّى « علم الفصاحة » كما أن عندنا علم البلاغة أو علوم البلاغة ،

---

(١) حرَكتُ .

(٢) العيس : الجمال ، القلقل (بالضم) والقلاقل : السريع الحركة ، فقلاقل الأولى في البيت جمع والثانية مفرد.

(٣) لا يوجد في اللغة فعل ثلاثي (رَسَلَ) بمعنى بعث ، وإنما هو «أرسَلَ» بزيادة الهمزة، فاسم الفاعل منه يكون على وزن مضارعه مع إبدال حرف المضارعة ميم مضمومة وكسر ما قبل آخره .

ولكننا نكتسب صفة الفصاحة من مراعاة قواعد اللغة العربية التي نتدرب عليها في علم النحو ، ويدخل في ذلك إجادة نطق الحروف ، كما نكتسبها من مراجعة معاجم اللغة حين نشك في صيغة كلمة أو معناها . ولابد بعد ذلك من ذوق سليم في اختيار الألفاظ المستعملة السهلة النطق ، وتجنب الألفاظ المهجورة والمتنافرة الحروف .

ولعله قد وضح من ملاحظتنا على النماذج السابقة ، أن الكلام لا يمكن أن يستوفي شروط البلاغة إلا بعد أن يستوفي شروط الفصاحة ، أي أنه يجب أن يكون صحيحاً قابلاً لأن يُفْهَمَ ، ليكون بعد ذلك بليغاً ، أي مُوَصِّلاً للمعنى في أكمل صورة إلى ذهن القارئ أو السامع . ولذلك قالوا : إن كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغاً .

القسم الثاني

في علم البيان

التشبيـــــــــه

نمـــــــاذج

(١) قال الله تعالى في شأنِ بني إسرائيلَ :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

[البقرة: ٧٤]

(٢) وقال تعالى في صفة يوم القيامة :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ(١) ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ(٢) ﴿٩﴾ ﴾ [المعارج: ٨ - ٩]

(٣) وقال تعالى في وصف حال أهلِ الجنة :

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإنسان: ١٩]

(٤) قال رسولُ الله ﷺ :

«يَجيءُ يَوْمَ القيامةِ ناسٌ من المسلمين بِذنُوبٍ أمثالِ الجِبالِ فيغفرُها الله لهم ... » أخرجه مسلم .

(٥) قال شوقي(*) :

ومـــا الحـــيـــاة إذا أَظْمَتْ وإنْ خَـــدَعَـتْ   إلا سَـــرابٌ على صَـــحْـــراءَ يَلْتَـــمِعُ

(*) شوقي : أشهر شعراء العربية في العصر الحديث . توفي سنة ١٣٥١ هـ .

(١) الزيت المغلي .

(٢) الصوف المنفوش .

(٦) **قال الأمير عبد الله الفيصل :**

لنْ تَعْـرِفَ اليأسَ روحي والشبابُ يَدٌ   إذا دَهَـتْـنـي [١] دَوَاهِـي الـدَّهْـرِ تَـسْـنُـدُنـي

(٧) **قال الشاعرُ السعوديُّ المعاصر حسنُ عبد الله القرشي يذكرُ نكبةَ فلسطين :**

مَـا فلسطينُ ؟ جـراحٌ أَعْـوَلَـتْ   مـا فلسطينُ ؟ دَمٌ لم يَجْـمُـدِ

مَـا فـلسطينُ ؟ بقـايا أَدْمُعٍ   وأنينٌ حـائِرٌ لم يهـجُـدِ [٢]

ملاحظـات

ترين في هذه النماذج أسلوباً في تصوير المعنى يقوم على مقارنة شيء بشيء ؛ كمقارنة القلوب بالحجارة ، والسماء بالزيت المغلي ، والجبال بالصوف المنفوش ، والذنوب بالجبال ، والحياة بالسراب . ومن خلال هذه المقارنة تتمثل لنا صفة من الصفات ، كصفة القسوة في قلوب بني إسرائيل ، والمنظر الهائل المرعب في صفة السماء يوم القيامة ، والحالة الهشة المتطايرة التي تكون للجبال يومئذ ، وضخامة ذنوب بعض المسلمين ، وتكشُّف الحياة الدنيا عن لا شيء.

ففي أسلوب التشبيه نجد موضوعاً يوصف ، سواء أكان هذا الموضوع شيئاً محسوساً أم معنى يُدْرَكُ بالفكر ، ونجد أن هذا الموضوع لا يوصف وصفاً مباشراً ، بل يُلْحَقُ بشيء آخر تكون هذه الصفة فيه أقوى أو أوضح ، أو أقرب إلى تجربة السامع أو القارئ. وهناك كلمات تدل على التشبيه، منها ما هو حرف (الكاف وكأنّ) ، ومنها ما هو فعل (حسب ، ظن ، خَالَ ، وما في معناها)، ومنها ما هو اسم (مثل شبه ، وما في معناها).

(١) أصابتني .   (٢) يهدأ .

فالتشبيه أسلوب يدل على مشاركة أمر لأمر آخر في صفته . وأركانه ، أو عناصره، أربعة:

(١) مُشَبَّه : وهو الموضوع المقصود بالوصف .

(٢) ومُشَبَّه به : وهو الشيء الذي يُجْعَلُ نموذجاً للمقارنة .

(٣) ووجه الشَّبَهِ : وهو الوصف الذي يُستخلص من المقارنة .

(٤) وأداة التَشْبِيهِ : وهي الكلمة التي تدل على معنى التشبيه .

التشـبيـــه البلـــيـــغ

الركنان الأساسيان في أركان التشبيه الأربعة هما المشبه والمشبه به . وإذا اقتصر التعبير عليهما سُمِّي التشبيه «بليغاً» ، وهي تسمية اصطلاحية فحسب ، لأن بلاغة التشبيه قد تقتضي ذكر الوجه أو الأداة ، أو ذكرهما كليهما . وناهيك ببلاغة التشبيه في النموذج الأول من كلام رب العالمين ، فقد ذكرت فيه الأداة ووجه الشبه ، والبلاغة في هذه الحالة تقتضي ذلك ، لأن قلوب بني إسرائيل بعد أن شُبهت بالحجارة ، وهي مثال في القسوة ، ذكر أن الحجارة لا تثبت على حال واحدة من الصلابة ، وقلوبهم ثابتة على ذلك ، فقلوبهم إذن أقسى من الحجارة ؛ وهذا المعنى المعجز ما كان ليحصل للقارئ لو لم يُذكر وجه الشبه على هذه الصورة .

والنموذجان (الخامس والسادس) يتضمنان تشبيهات «بليغة» بالمعنى الاصطلاحي إذ لم يذكر فيهما من أركان التشبيه سوى المشبه والمشبه به . ولكن أساليبهما تختلف بعض الاختلاف فيما بينهما. ففي النموذج (الخامس) نجد المشبه موصوفاً بجملة تُشْعِر بوجه الشبه وإن لم يذكر الوجه صريحاً. «فالحياة سراب» تشبيه بليغ ، ولكن المشبه به «السراب» وُصِفَ بجملة «على صحراء يلتمع» أو «يلتمعُ على صحراء» فأفاد هذا الوصف معنى التلويح بالريِّ دونَ أن يكونَ هناك ري ، وهو المعنى الذي يريد الشاعر أن يخلعه على الحياة الدنيا . وكذلك الحال في النموذج (السادس) . «فالشباب يد» تشبيه بليغ، ولكن المشبه به «اليد» وُصِفَ بجملة مُعلّقة بشرط «إذا دهتني دواهي الدهر تسندني» ، فدل هذا الوصف على معنى الإمداد بالقوة حين يحتاج الإنسان إليها ، وهذا هو المعنى الذي يريد الشاعر إعطاءه للشباب .

أما النموذج (السابع) ففيه أربعة تشبيهات بليغة ، ثلاثة منها تضمنت وصفاً للمشبه به ، وخلا الرابع من مثل هذا الوصف . هل يمكنك أن تحددي التشبيهات الأربعة في هذا النموذج ، وأن تبيني وجه الشبه في كل من الحالات الثلاث التي وُصِفَ فيها المشبه به ، مستعينة بهذه الأوصاف ، ثم أن تبيني وجه الشبه في الحالة الرابعة التي لم يوصف فيها المشبه به ؟ ثم ما رأيك في اجتماع هذه التشبيهات الأربعة لشيء واحد ؟ هل ترين أنها تُقوِّي المعنى ؟

أمثلة أخرى لفن التشبيه

وإليك تشبيهاتٌ أخرى : حلِّليها إلى عناصرها أو أركانِها ، مبينةً المذكورَ والمحذوفَ من هذه الأركان ، وفائدةَ الذِّكْرِ أو الحذف :

١ - قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ(١) عَاتِيَةٍ(٢) ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا(٣) فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى(٤) كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ(٥) نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(٦) ۝ ﴾ [الحاقة: ٦ - ٧]

٢ - وقال رسول الله ﷺ :

«المؤمنُ في الدنيا ضَيفٌ ، وما في يدِهِ عَارِيَةٌ(٧) ، والضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ والْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ».

٣ - قال امرؤُ القيسِ :

كــأنَّ عــيــونَ الوحشِ حــولَ خِــبــائِنَا وأَرحُــلِنــا الْــجَــزَعُ الــذي لــمْ يُثَــقَّبِ(٨)

٤ - وقال طَرَفَةُ(*) بنُ العبد :

لِخَــوْلَةَ أطــلالٌ بِبــرقــةِ ثَهْــمَــدِ(٩) تــلوحُ كــبــاقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَــدِ

(*) طرفة بن العبد : أحد شعراء المعلقات. مات في شبابه مقتولاً.
(١) شديدة البرودة.
(٢) شديدة العصف.
(٣) متتابعات.
(٤) موتى .
(٥) أصول النخل .
(٦) متآكلة الأجواف .
(٧) ما يستعار .
(٨) خبائنا : خيمتنا . وأرحلنا : جمع رحل وهو الأداة التي توضع على ظهر الناقة . الجزع : الخرز اليماني وفيه سواد وبياض.
(٩) اسم موضع .

٥ – **وقال النابغةُ يعتذر إلى النعمانِ بنِ المنذر ويستعطفُه :**

فــإنَّكَ كــالليلِ الذي هُوَ مُــدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المنْتَــأى عنكَ واسِعُ

٦ – **وقال ابنُ الرومي (*) :**

رُبَّ ليلٍ كــأنَّـهُ الدهْرُ طُولا قــدْ تناهى فليسَ فيهِ مزيدُ
ذي نجــومٍ كــأنهنَّ نجومُ الشَّـ ـيْبِ ليستْ تغيبُ ، لكنْ تزيدُ

٧ – **وقال أحمدُ شوقي :**

أنا مَنْ بَدَّلَ بالكتبِ الصِّحابا لمْ أجدْ لي وافيـاً إلاَّ الكتابا
صاحِبٌ إنْ عِبْتَهُ أوْ لَمْ تَعِبْ ليسَ بالواجِدِ في الصاحِبِ عَابا

٨ – **وقال عباس محمود العقاد (**) يصفُ العصفورَ :**

حَـطَّ على الغُصْنِ وانْحدرْ أقَلَّ مِنْ لمحةِ البَصَرْ
مغَرِّداً قطُّ مَا توانَى (١) مُرفْرِفاً قَطُّ ما اسْتَقَرْ
يَلْمِسُ أيْكاً بُعَيْدَ أيْكٍ (٢) كأنَّما يلمِسُ الإِبَرْ

(*) ابن الرومي : من شعراء القرن الثالث. برع في الوصف.

(**) العقاد : من أعلام الأدب العربي المعاصر . غلب عليه النثر أكثر من الشعر ، وتراجمه الإسلامية مشهورة . توفي في سنة ١٣٨٤هـ.

(١) تكاسل ، تباطأ .

(٢) الأيك : الشجر الكثير الملتف .

٩ - **وقال إيليا أبو ماضي**(*) **يصفُ ليلةَ أَرَقٍ :**

لــكنَّــنِــي لما أَوَيْـــتُ لمضْـــجَـــعِي خَـــشُـنَ الفـــراشُ عَلَيَّ وهْوَ وثِيـــرُ[1]
وإذا سِـــراجي قَـــدْ وَهَـتْ[2] وتَـلَجْلَجَـتْ[3] أنفـــاسُـــهُ فكأنَّـهُ المصـــدورُ

١٠ - **وقال أحمد الصافي النجفي**(**) **يصف دُمَّر**[4] :

دُمَّـــرٌ مـــاؤهـــا عـلى الــدُّرِّ يهـــوي كَـــمَـــرَايـــا تكسَّـــرَتْ مِنْ لُــجَـــيْنِ

(*) أبو ماضي : شاعر لبناني معاصر ، هاجر إلى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ثم انتقل إلى أمريكا الشمالية وتوفي بها.
(**) النجفي : شاعر عراقي معاصر ، تميز بسهولة الأسلوب والميل إلى تصوير مشاهد الحياة العادية ، وتوفي منذ سنوات.
(١) لين .
(٢) ضعفت .
(٣) اضطربت .
(٤) ضاحية من ضواحي دمشق .

التشبيـــه التمثيلـي

نمـــــــاذج

(١) قـال الله تعـالى : ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾

(٢) وقـال تعالـى في شـأنِ اليهـود : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]

(٣) قالَ رسولُ الله ﷺ :

«مَثَلُ المؤمنينَ في تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى» . أخرجه البخاري ومسلم وأحمد

(٤) وقالَ رسولُ الله ﷺ :

«مَثَلُ الصلواتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نهرٍ جارٍ غَمْرٍ (١) على بابِ أحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كلَّ يومٍ خَمسَ مراتٍ» أخرجه مسلم.

(٥) قال ابنُ المعتز :

انظُرْ إلى حُسْنِ هلالٍ بَدَا ... يَهْتِكُ مِنْ أنوارِه الحِنْدِسَا (٢)

كَمِنْجَلٍ قَدْ صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ ... يَحْصُدُ مِنْ زَهَرِ (٣) الدُّجَى نَرْجِسَا

---

(١) كثير الماء . (٢) الظلام الكثيف . (٣) نجوم .

ملاحظـــات

النماذج السابقة تحتوي كلها على تشبيهات. ولكنك إذا قارنت هذه التشبيهات بتلك التي وردت في الدرس الأول من دروس التشبيه لاحظت فرقاً بين القسمين . فوجه الشبه هناك صفة واحدة ، كالقسوةِ في تشبيه القلوب بالحجارة ، وكُدْرَةِ اللون في تشبيه السماء بالمُهْل . وربما تصورنا عدة صفات في وجه الشبه ، ولكنها صفات مستقلة بعضها عن بعض ، كما في تشبيه الجبال بالعهن أي الصوف المنفوش ، فقد نفهم من ذلك صفة التفكك ، أو الخفة ، مع اختلاف ألوان الجبال كما يختلف الصوف بعضه عن بعض في اللون.

وقد تكون الصفة المستفادة من التشبيه مرتبطة بحالة معينة أو نتيجة معينة ، كما في تشبيه الحياة بالسَّراب ، فوجه الشبه هنا هو المنظر المُطمِعُ الذي ينتهي إلى لا شيء ، وكما في تشبيه الشباب باليد التي تمتد إلى الإنسان فتقيه من السقوط ، فوجه الشبه هنا هو المساعدة في وقت الشدة . ولكن وجه الشبه في جميع هذه الحالات صفة بسيطة ، على عكس ما نجده في النماذج التي أمامنا الآن ، حيث نجد وجه الشبه حالة مركّبة .

ففي الآية الكريمة من سورة (الكهف) تشبيه للحياة الدنيا ، إذا قارنته بتشبيه شوقي للدنيا بالسراب تبين لك الفرق بين القسمين . فوجه الشبه هنا صورة مركّبة من (النماء والجمال والزينة) ، ثم (اليبس والجفاف والانحلال) .

وفي النموذج الثاني شبهت حالة اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يقوموا بها ، ولم يعملوا بما فيها (بحالة الحمار الذي يحمل فوق ظهره كتباً) ، فهي بالنسبة إليه لا تعدو كونها ثقلاً يحمله .

وفي النموذج الثالث شُبِّهت جماعة المسلمين بالجسد ، ومع أن كلا من المشبه والمشبه به مفرد (أي

غير مركَّب) بخلاف النموذجين السابقين[1] ، فإن وجه الشبه مركّب من حالة (الترابط والتكافل) التي تجعل الأجزاء كلها تعمل متساندة حتى إذا طرأ خلل على جزء واحد منها تأثرت به سائر الأجزاء .

وتستطيعين أن تلاحظي مثل ذلك في النموذجين الباقيين .

ولعلك تلاحظين أيضاً أن وجه الشبه في بيتي ابن المعتز (النموذج الخامس) صفات محسوسة ، بعكس النماذج السابقة واللاحقة له ، حيث نجد وجه الشبه مركَّباً من **معان عقلية** ، أبرزت في صورة محسوسة وهي صورة المشبه به . إلا أن بيتي ابن المعتز يشتركان مع سائر النماذج فيكون وجه الشبه مركَّباً من جملة صفات . ولذلك يدخلهما معظم البلاغيين في هذا القسم ، قسم التشبيه التمثيلي .

فالتشبيه التمثيلي هو نوع من التشبيه يكون وجه الشبه فيه حالة مركَّبة من جملة صفات . والغالب أن يكون وجه الشبه فيه عقلياً .

وقد يسمى أيضاً بتشبيه التمثيل ، أو المَثَل .

(١) المشبه في النموذج الأول مفرد والمشبه به مركّب ، والمشبه والمشبه به في النموذج الثاني كلاهما مركبان .

نماذج أخرى من التشبيه التمثيلي

بيِّني المشبهَ والمشبهَ به ووجهَ الشبه في الأمثلة التالية، ثم وضِّحي قيمتَهُ الفنيةَ حسب رأيك :

١ - **قال الله تعالى :** ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: ١٨]

٢ - **وقال تعالى :** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور: ٣٩ - ٤٠]

٣ - **قال الفرزدقُ(*) :**

والشَّيْبُ يَنْهضُ في الشبابِ كأنَّهُ ... ليلٌ يصيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهارُ

٤ - **قال بشَّارُ بن برد(**) :**

كأنَّ مثارَ النَّقْعِ(١) فوْقَ رُؤوسِنا ... وأسيافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كواكِبُهْ

(*) الفرزدق : أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين في العصر الأموي، والآخران هما جرير والأخطل .

(**) بشار بن برد : عاش في أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي، وعده النقاد «رأس المحْدَثين» أي الشعراء الجدد في ذلك العصر .

(١) الغبار .

٥ - وقال ابن حجَّاج[*] :

هذي المجَـــرَّةُ[1] والنجــــومُ كــأنَّهـــا   نَهْــرٌ تدفَّـــقَ في حــديقـــةِ نرجِسِ

٦ - وقال شوقي :

سَــــرَى الشَّـــيْبُ مُـتَـئِــداً في الرَّؤُو   سِ سُــــرَى النارِ في الموضِعِ المُعْـــشِبِ

(*) ابن الحجاج : من شعراء القرن الرابع الهجري .

(١) مجموعة نجوم بعيدة ترى في السماء غير متميز بعضها من بعض وكأنها خط أبيض .

التشبيــه الضــمــنــي

نمـــــــاذج

(١) قال الله تعالى : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]

(٢) قال ابن الرومي :

عَــدُوُّكَ من صــديقك مُــسْـتَـفَـادٌ ... فــلا تســتكثــرَنَّ من الصِّـحَـاب

فــإنَّ الـــــدَّاء أَكْـثَــرُ مــا تــــراهُ ... يَـحُــولُ من الطَّعـــامِ أو الشَّـــرابِ

(٣) قال ابن حزم(*) :

وَصَــفُــوكَ لي حــتى إذا أبصــرْتُ مــا ... وصـــفـــوا عَـلـمْتُ بأنـهُ هَذَيانُ

فـــالطبْلُ جِلْـدٌ فـــارغٌ ، وطنينُهُ ... يَرتاعُ منهُ ويَفْـــرَقُ(١) الإنســـانُ

(٤) قال مصطفى صادق الرافعي(**) :

لَعَــمْــرُكَ مــا تسـتـقــرُّ الهــمــومُ ... على مُــؤْمن روحُــهُ فــيــهِ حُــرُّ

وَمَنْ ذا رأى في الســمــاءِ الغــيــومَ ... تُقـــيمُ بهـــا أبداً لا تَـمـــرُّ

(*) ابن حزم : أشهر فقهاء الأندلس في القرن الخامس ، وكان شاعراً وناثراً .

(**) الرافعي : من كبار الكتاب المعاصرين ، عرف بأسلوب يقوم على الصياغة المحكمة وحشد الصور البيانية ، بدأ حياته الأدبية شاعراً .

(١) يفزع .

ملاحظـــات

في الآية الكريمة في سورة (الرعد) تقرير بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو رب السموات والأرض المتصرف فيهنَّ ، وتوبيخٌ للكفار الذين اتخذوا من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . وعُقِّبَ على هذا التقرير بما فُهِم منه تشبيه الكافر الذي يغضي عن هذه الحقيقة بالأعمى ، والمؤمن الذي يتيقنها بالبصير ، لأن الأول لا يرى الآيات ، والثاني يراها ، وتشبيه الكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور ، لأن الكفر سبب لعدم الرؤية ، والإيمان سبب للرؤية . فالتشبيهان مفهومان من سياق الآية الكريمة ، ولم يأت المشبه كما في أمثلة الدرس السابق مخبراً عنه أو موصوفاً بالمشبه به ، على نحو صريح ، ولذلك يقال عن التشبيه الذي من هذا النوع إنه «تشبيه ضمني» أي مفهوم من الكلام ضمناً لا صراحة، وإن كنا نستطيع أن ندل على المشبه والمشبه به ، وأن نتصور وجه الشبه .

وفي النموذج الثاني يشبه ابن الرومي تحول الصداقة إلى عداوة بتحول الطعام والشراب إلى أسباب المرض ؛ ولكنه لم يعبر عن هذا المعنى دفعةَ واحدة، كما يقتضي التشبيه الصريح ، فلم يقل : إن بعض الأصدقاء يتحولون إلى أعداء ، كما يتحول بعض الطعام والشراب إلى أذىً للجسم ، وإنما دلَّ على كلٍّ من ركني التشبيه بجملة مستقلة ، وتركنا نفهم معنى التشبيه من البيتين .

وفي استطاعتك أن تقيسي النموذجين الثالث والرابع على ما سبق .

فالتشبيه الضمني هو التشبيه الذي يفهم من سياق الكلام ، ويغلب أن يؤدَّى بجملتين أو أكثر بدلاً من جملة واحدة .

أمثلة أخرى للتشبيه الضمني

بيِّني المشبهَ والمشبهَ به ووجهَ الشبه في الأمثلة التالية :

١ - قال أبو تمام(*) في العتابِ :

أخـــرجْــتُــمُــوه بِكُرْهٍ مِنْ سـجِـيَّـتِـهِ   والنارُ قــد تُلْتَظَى[1] مِنْ ناضِــرِ السَّلَمِ[2]

٢ - وقال في الحكمة :

وإذا أرادَ الله نـشْـــرَ فـــضــــيلةٍ   طُويَتْ، أتاحَ لهـــا لســانَ حَـسُــود

لولا اشْـتــعــالُ النارِ فـيــمــا جَــاوَرَتْ   مــا كــانَ يُعْــرَفُ طِيبُ عَــرْفِ العــودِ[3]

٣ - وقال البحتري(**) يمدح الفتح بن خاقان ويشير إلى أخلاق الممدوح :

وَقَـــدْ زادَها إفــراطَ حُــسْنٍ جــوَارُها   خــلائقَ أصْــفَــارٍ منَ المجــد خُــيَّب

وحُـــــسْنُ دراريِّ الكـواكــبِ أنْ تُــرَى   طوالِـــعَ في داجٍ مِــنَ الليـــلِ غَـيْـهَـبِ

٤ - وقال المتنبي في الحكمة :

مَنْ يَهُــنْ يَسْــهُلِ الهَـــوَانُ علـيْــهِ   مــــــا لجُــــــرحٍ بمـيِّــتٍ إيـــلامُ

(*) أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، أحد أعلام الشعر العربي. له مذهب في الشعر أكثر فيه من ألوان البيان والبديع مع عمق في الفكرة.

(**) البحتري من مقدمي الشعراء في القرن الثالث. اشتهر بسهولة معانيه وعذوبة ألفاظه.

(١) تلتهب.

(٢) نوع من شجر العضاه .

(٣) هو نوع من العيدَان الَتي يُتبخر بها لرائحتها الطيبة .

٥ – وقال ابن عَمَّارَ(*) :

عَـــيَّـــرتُمـــوني بـالنُّحـــولِ وإنَّمـــا　　　شَـــرَفُ المهنَّدِ أن تَرِقَّ شِـــفَـــارُهُ

٦ – وقال ابن المقرب(**) :

إنْ يُمْسِ مـــقـــتكُمُ حظِّي فَـــحُقَّ لكُم　　　الوردُ مِنْ قُـــربِهِ يُغْـــمَى على الجُـــعَلِ

٧ – وقال أحمد صافي النجفي :

ومُـــــتْـــــرَفٍ لامني لما شكَوْتُ ولو　　　أحسَّ مـــــثْلِيَ بالآلام لـــمْ يَلُـــمِ

وهـل يُلامُ فـــتىً بِالنارِ مُـــشْـــتَـــعِلٌ　　　إنْ صـــاحَ مُـشْـتكيـاً مِنْ لَذْعَـةِ الضَّـرمِ

٨ – وقال إلياس فرحات(***) :

للغـرِب في الشَّـرق عـادات مُـقـدَّمَـةٌ　　　كـــانـتْ ومـــا بَرِحَـتْ أَوْلى بتـأخـيـرِ

لا تَتْـبَعُـوها ، فكَـمْ مِنْ زَهْـرةٍ حَـسُنَـتْ　　　في الناظِرَيْنِ وســاءَتْ في المناخـــيـرِ

٩ – قال أحمد رامي(****) في قصيدة بعنوان «الجمال الراحل» :

فَـــضْلَـةٌ مِنْ مـــحـــاســـن ، وبقـــايا　　　مِنْ جـــمـــال قـــضـــى الـرَّدَى أن يُهـــانـا

ولـقـــــــدْ يـذبُـلُ الـنـديُّ مـن الـزهْـ　　　ـرِ ويبـــقـى عـــبـــيـــرُهُ أحـــيـــانا

ولقـــدْ يخـــفتُ الرخـــيـمُ من الصَّـــوْ　　　تِ ويشـــجُـــو رنينُـــهُ الآذانـــا

ولقـــدْ تغـــرُبُ المَهَـــاةُ(١) وتكســـو الـ　　　أُفْـــقَ مِنْ بَعـــدِها ثيـــاباً حِـــسـانا

(*) ابن عمار : من كتاب الأندلس وشعرائها في القرن الخامس الهجري.

(**) ابن المقرب : من شعراء الجزيرة العربية في القرنين السادس والسابع الهجري.

(***) إلياس فرحات : شاعر لبناني معاصر ، هاجر شاباً إلى أمريكا الجنوبية (البرازيل) وأقام بها .

(****) أحمد رامي : شاعر مصري معاصر ، وتوفي منذ سنوات قريبة .

(١) الشمس .

ولقـــــدْ ينضُبُ الغَـــدير ُويبـــقى　　　زهــــرُهُ فـــــــوقَ شــــطِّهِ أَلْـوانـــا

١٠ - وقال المتنبي(*) :

فـــــلا تَغْــــرُرْكَ ألسنةٌ مَــــوَال　　　تُقَلِّبُـــــهُنَّ أفـــــئـــــدةٌ أعــــادي

فـــإنَّ الجُــرحَ يَنْفِــرُ(١) بعــدَ حينٍ　　　إذا كــــانَ البِنــاءُ على فــســـادِ

١١ - قال أبو القاسم الشابي(**) :

لا ينهَضُ الشَّـعبُ إلاَّ حينَ يدفــعُــهُ　　　عــزمُ الحيــاة إذا مــا استـيْـقَظَـتْ فيـه

والحَبُّ يخـتــرِقُ الغــبــراءَ مُندفِـعــاً　　　إلى الســمـــاءِ إذا هبَّــت تُـنَـاديــه

(*) المتنبي : أكبر شعراء العربية في القرن الرابع، ويرى الكثيرون أنه أكبر شعراء العربية على الإطلاق وله مدائح كثيرة في سيف الدولة الحمداني الذي استقل بحكم دولة في شمالي الشام كان مركزها حلب، واشتهر بحروبه ضد الروم.

(**) الشابي شاعر تونسي، يعد من أعلام الشعر العربي المعاصر ، ولو أنه مات قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، توفي سنة ١٣٥٣هـ.

(١) يسيل منه الدم .

التشبيه المقلوب

نماذج

(١) قال أبو تمام يمدح :

وأحسنُ من نَورٍ يفتِّحُهُ النَّدى ... بياضُ العَطَايا في سَوَادِ المَطالبِ

(٢) وبعثَ الصاحبُ بن عباد(*) هديةً من العطر إلى القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، ومعها رُقْعةٌ فيها هذان البيتان :

يا أيُّها القاضي الذي نَفْسي لهُ ... مَعْ قُرْبِ عهدِ لقائهِ مُشْتَاقَهْ

أهديتُ عِطراً مثلَ طِيبِ ثنائه ... فكأنَّما أُهْدي لهُ أخْلاَقَه

(٣) وقال القاضي التنوخي(**) يصف قدوم الشتاء :

انهضْ بنارٍ إلى فحمٍ كأنَّهما ... في العينِ ظُلْمٌ وإنصافٌ قَدِ اتَّفقا

(٤) وكتب إلياس فرحات في قطعة بعنوان « الشاعر » :

بُلبليُّ الرُّوحِ ، نسْريُّ الجناحِ ... ما لمَا يكتُبُهُ في الطُرسِ مَاحِ

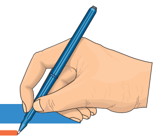
أدمعُ الفجرِ بأَجفانِ الأقاحي ... غِرْنَ من ألفاظهِ الغُرِّ الفِصَاحِ

(*) ابن عباد وزير آل بُوَيه ، كان كاتباً شاعراً عالماً باللغة ، توفي سنة ٣٨٥هـ والقاضي الجرجاني هو أحد النقاد العرب الكبار.

(**) التنوخي : أحد شعراء القرن الرابع الهجري.

(٥) **وكتب ميخائيل نعيمة(*) في قصيدة عنوانها « يا بحر » :**

أَمَا تعبْتَ؟ عَجيجٌ ... كَرٌّ فَفَرٌّ فكَرُّ
ماذا تروم؟ وأنَّى ... تسيرُ لا تستقرُّ؟
كأنَّما فيكَ مثلي ... قلبان: عبْدٌ وحرُّ
هذا يرومُ فِراراً ... مِنْ ذا، وليسَ مَفَرُّ



ملاحظات

الأصل في التشبيه - كما مرَّ بنا في الدروس السابقة - أن تكون الصفة المراد إثباتها أقوى أو أظهر في المشبه به منها في المشَّبه . وهذا أمر طبيعي . فالمشبه به لم يأت في الكلام إلا لتوضيح صفة في المشبه. ولكن الشعراء والكتاب بدأوا يميلون إلى التصنع منذ ظهور أبي تمام ، واشتد هذا الميل منذ القرن الرابع «الهجري» حتى العصر الحديث ، وكان من مظاهر التصنع الإكثار من التشبيهات والتماس الغريب منها.

ومن وسائل الإغراب في التشبيه أنهم قلبوا وضع المشبه والمشبه به ، فجعلوا المشبه أقوى في الصفة أو أقرب إلى العادة أو الإحساس من المشبه به فأصبح بذلك المشبه مشبهاً به ، للادعاء بأن الصفة صارت أقوى فيه من المشبه الحقيقي الذي أصبح هنا مشبهاً به ، وكأنهم يريدون إيهام القارئ أو السامع بأن المشبه قد بلغ من التمكن في الصفة أو الاشتهار بها مبلغ المشبه به أو أكثر . وهذا ما تلاحظينه في النماذج الثلاثة الأولى. وقد عاب كثير من النقاد هذا الأسلوب لما فيه من التكلف والبعد عن الغرض من التشبيه .

(*) نعيمة : من كبار الأدباء اللبنانيين الذين علت شهرتهم في المهجر الشمالي. وعاد إلى وطنه لبنان وأقام فيه.

على أننا نجد في العصر الحديث إحياءً لهذا الأسلوب في صورة أخرى ، ففي كل من النموذجين الرابع والخامس نرى الشاعر يشبه مظاهر الطبيعة بما يصنعه الشاعر أو بما يجري في نفسه ، مع أن الصفة في الأولى أقوى وأظهر ، فلا شك أن قطرات الندى أشد صفاءً من ألفاظ الشاعر ، فضلاً عن أن صفاء الندى يُدْرَكُ بالحس بخلاف الألفاظ . وكذلك لا يمكن أن يبلغ اضطراب نفس الشاعر مبلغ البحر في هياجه واصطخاب أمواجه . ولكن الشاعر الحديث مشغول بعواطفه أكثر من شغله بمظاهر الوجود من حوله ، فربما نقل إلينا حالته النفسية بأسلوب التشبيه المقلوب ، فنشعر أنه صادق غير متكلف ، وسواء أعجبتنا نزعة الشاعر إلى تضخيم ذاته أم لم تعجبنا ، فإن الأسلوب في حد ذاته لا يبدو لنا غريباً ولا مستنكراً .

مقارنــــة

قارني بين أبياتِ نُعَيْمة (النموذج الخامس) وهذه الأسطر لمصطفى صادق الرافعي ، وهي من فصلٍ له بعنوان « البحر » :

أعْرفُ للبحرِ في نفسي كَلاماً ، فهو يُوحي إليَّ أنْ تجَدَّدْ ، تجدَّدْ في آمال قلبكَ كأمْواجي لئلا تملَّ فتيأسَ ، وتحرَّكْ ، تحرَّكْ في نزعاتِ نفسكَ كتيّاري لئلا تركُدَ فتفسدَ ، وتوسَّعْ توسَّعْ في معاني حياتك كأعماقي لئلا تمتلِئَ فتتعكَّرَ ، وتبحَّرْ تبحَّرْ في جَوِّكَ الحرِّ كرياحي لِئلا تسكُنَ فتهمَدَ .

أمثلة من التشبيه المقلوب

بيِّني أركان التشبيهات في الأمثلة التالية وبيني رأيك في قيمتِها الفنية :

١ - قال أبو نواس(*) يمدح :

إنَّ السَّحابَ لَتَسْتَحْيِي إذا نظرَتْ   إلى نَدَاكَ[1] فقاسَتْهُ بِما فيها

٢ - وقال المتنبي يتغزل :

لم تَلْقَ هذا الوجهَ شمسُ نهارِنا   إلا بوجهٍ ليسَ فيهِ حياءُ

(*) أبو نواس : نبغ في الشعر في أوائل عهد الدولة العباسية . له مدائح مشهورة في الرشيد والأمين.

(١) عطائك .

٣ - وقال بديع الزمان الهمذاني(*) مادحاً :

يكادُ يَحْكيكَ صَوْبُ الغيثِ مُنْسَكِباً ... لو كانَ طَلْقَ المُحَيَّا يُمطرُ الذَهبا
والبدرُ لَوْ لَمْ يغِبْ ، والشمسُ لو نطقَتْ ... والأُسْدُ لوْ لم تَصَدْ ، والبحْرُ لو عَذُبا

٤ - وقال ابن المقرب(**) يمدح :

لَوْ أنَّ للعَضْبِ المهنَّدِ عَزْمَهُ ... لَفَرَى الجماجمَ وَهْوَ في الأجْفَانِ
ولَوْ أنَّ للشمسِ المنيرةِ بِشْرَهُ ... تاهَتْ (١) فلمْ تطلُعْ مَدى الأزمانِ

٥ - وكتب محمود حسن إسماعيل(***) :

خَلِّني للدموعِ وَحْدي أُناجِيـ ... ـها وَحيداً في العُزْلَةِ السَّوْداءِ
هِيَ أشْهى إلى عيوني مِنَ النُّو ... رِ وأبْهى مِنْ لمحةِ الأَنْداءِ

(*) الهمذاني : من كبار الكتاب في القرن الرابع الهجري . ابتدع فن «المقامة» وهي قصة قصيرة مسجوعة . له شعر جيد .
(**) علي بن المقرب العيوني : نسبة إلى «العيون» بلدة بالأحساء من مقدّمي الشعراء في القرنين السادس والسابع الهجري.
(***) محمود حسن إسماعيل : شاعر مصري معاصر ، توفي منذ سنوات .
(١) تكبّرت .

أغـــراض التشبيـــــه

نمــــــــاذج

(١) قال الله تعالى في شأن الكفار : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[١] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

[آل عمران: ١١٧]

(٢) وقال تعالى في شـأن المؤمنين : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾

[البقرة: ٢٦١]

(٣) قال رسول الله ﷺ :

« **المؤمنُ لِلمؤمِن كالبُنيانِ يشُدُّ بعضُه بعْضاً** » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٤) **قال امرؤُ القيسِ يصفُ الأطلالَ (آثار المنازل) :**

تَرَى بَعَـرَ الآرامِ[٢] في عَـرَصَـاتِهـا[٣] وقِـيـعَـانِهـا كـأَنَّهُ حَبُّ فُلْـفُـلِ

(١) برد شديد .
(٢) الظباء .
(٣) ساحاتها .

(٥) قال البحتري :

عَيَّرَتْني المشيبَ وَهْيَ رَمَتْهُ ... في عِذاري[1] بالصَّدِّ والاجْتِنَابِ
لا تَرَيْه عاراً فما هُوَ بالشَّيْـ ... ـبِ ولكنَّهُ جَلاءُ الشَّبابِ
وبَياضُ البازيِّ أصدقُ حُسْناً ... إنْ تَأمَلْتَ مِنْ سوادِ الغُرابِ

(٦) قال ابن سعيد المغربي[*] :

والنَّخْلُ أمثالُ العرائسِ لُبْسُهَا ... خَزٌّ[2] وحِلْيَتُهَا قَلائِدُ مِنْ ذَهَبْ

(٧) قال ابن الرومي :

فَدَعْ عَنْكَ الكثيرَ ، فكَمْ كثيرٍ ... يُعَافُ[3] وكمْ قليلٍ مُسْتَطابِ
وما اللُّجَجُ[4] المِلاحُ بِمُرْوِياتٍ ... وتَلْقَى الرِّيَّ في النُّطَفِ[5] العِذَابِ

ملاحظات

عرفنا في الدروس الماضية أن التشبيه نوع قوي من الوصف ، إذ إنه يقرِّبُ المشبَّه (الموصوف) من الحواسّ ، أو من تجربة السامع ، أو يربطه بشيء ، هو أقوى منه في الصفة . وتحت هذا الغرض العام من التشبيه أغراض خاصة تكون في بعض التشبيهات أظهر منها في بعضها الآخر .

(*) المغربي : من أدباء الأندلس وشعرائها في القرن السابع الهجري.
(١) العذار : جانب اللحية .
(٢) حرير .
(٣) يكره مذاقه .
(٤) جمع لجّه ، وهي الماء الكثير .
(٥) جمع نطفة وهي الماء الصافي .

فمن هذه الأغراض : **بيان مقدار الصفة في المشبه** ، كما في النموذج الثاني . فالأموال التي ينفقها المؤمنون في سبيل الله تتميز بصفة ، وهي أنها تعود عليهم بأضعاف أضعافها . وقد صور التشبيه هذا الجزاء الوافي الجزيل تصويراً يقرب مقداره من الذهن.

وفي النموذجين الأول والثالث **تقرير للصفة ذاتها** ، فهما أقرب إلى الغرض العام من التشبيه ؛ والصفة في كليهما معنوية ، فهي في الآية الكريمة ضياع العمل، وفي الحديث الشريف التضامن أو التعاون .

وقد تكون الصفة التي يقررها التشبيه **حسية محضة** كما في النموذج الرابع ، **وهنا يحسن التشبيه إذا لوحظت فيه عدة صفات لا صفة واحدة** ، كما في بيت امرئ القيس ، حيث نجد في المشبه به صفات الاستدارة والسواد والصلابة والصغر، أي أن التشبيه اكتسب قوته من إيجازه.

وقد يكون الغرض من التشبيه **تحسين المشبه أو تقبيحه** . وقد اجتمع الغرضان في النموذج الخامس، حيث شبه البحتري بياض المشيب ببياض البازي (ليجعله جميلاً) ، وشبه سواد الشعر الذي يدل على الشباب بسواد الغراب (ليجعله قبيحاً).

والنموذج السادس يمكن أن يُعدَّ مثالاً لتحسين المشبه ، ولكن فيه غرضاً آخر أظهر من التحسين ، وهو **الغرابة أو الطرافة** . فلو قارنت هذا التشبيه بتشبيه امرئِ القيس في النموذج الرابع ، لوجدت غرض الشاعر مختلفاً في المثالين ، فإذا كان امرؤ القيس قد أرادَ تقرير الصفة بطريقة موجزة جامعة ، فجاء بمشبه به يمثل أكثر صفات المشبه ، فإن ابن سعيد أراد أن يفاجئنا بصورة غريبة، فشبه النخل بالعرائس، والبون بينهما بعيد ، ولذلك كانت براعة هذا التشبيه في اكتشاف جوانب التشابه ، ليكون التشبيه مقنعاً مع غرابته ، ومن ثم ربط ابن سعيد بين سعف النخل الأخضر والحرير ، وبين الطلع الأصفر وقلائد الذهب.

وقد يأتي التشبيه **لإثبات قضية** ، وخصوصاً إذا كانت قضية لا يسهل التسليم بها ، كما في النموذج السابع من شعر ابن الرومي . فالناس عادة تطلب الكثرة ، ولكي يثبت هذه القضية التي لا يسلم بها الناس عادة شَبَّه الكثرة بماء البحر المالح ، والقلة بجرعات الماء العذب عند الظمآن ؛ فأثبت قضيته من أقرب الطرق .

فأغراض التشبيه إذن قد تكون بيان مقدار الصفة ، أو تقريرها ، أو تحسين المشبه، أو تقبيحه ، أو تصويره بصورة طريفة ، أو إثبات صحته .

وجودة التشبيه تكون بإصابة الغرض الذي يتوخاه قائله.

ومما يساعد على ذلك : القدرة على تصوير المعقول في صورة المحسوس ، وسعة الخيال التي تمكنه من الربط بين الأشياء المتباعدة .

من التشبيهات المعيبة

١ - **من أكبر عيوب التشبيه ألا تكون الصفة المراد نسبتها إلى المشبه ظاهرة في المشبه به** ، فهذا ينقض الغرض الأصلي من التشبيه . ومما يستطرف من أخطاء الشعراء في التشبيه ذلك البيت الذي رواه المبرِّد (*) في كتابه « الكامل » :

بـلْ لَـوْ رأتْني أخت جيـرانـنَا   إذْ أنـا في الدارِ كـأني حـمـارُ

أراد أن يصف نفسه بالقوة وسلامة البدن ؛ وقلما تخطر هذه الصفة على البالِ إذا ذكر الحمارِ.

وإذا شئت أن تعرفي فرق ما بين السماء والأرض في جودة التشبيه فعودي إلى كلام رب العزة في تشبيه اليهود بالحمار ، مع وضوح الصفة وبيان الدلالة ، مما جعل هذا التشبيه من بلاغة الإعجاز القرآني . ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]

٢ - **وربما صرَّحَ الشاعرُ في مثل هذه الحالة بوجه الشبه** ، ولكن ذلك لا يُخْرِجُ تشبيهه من الرداءة إلى الجودة ، وما أسخف قول الآخر يمدح :

أَنْتَ كـالكلبِ في حِـفَـاظِـكَ   للْودِّ وكـالتَّـيْسِ في قِـراعِ الخطوبِ

٣ - **وأقلُّ من ذلك رداءةً أن يُنْسبَ إلى المشبهِ به وصفٌ غيرُ معهودٍ فيه ، ليُحْملَ هذا الوصفُ بعد ذلك على المشبهِ** ، كقول أحدهم يمدح :

كـانَتْ بنو غـالبٍ لأُمَّـتِـهَـا   كـالغـيثِ(١) في كُلِّ ساعـةٍ يَكِفُ(٢)

(*) المبرد : من كبار علماء اللغة والأدب في القرن الثالث الهجري ، وكتابه «الكامل» من كتب الأدب الجامعة .

(١) المطر .

(٢) يسيل أو ينهمر .

فليس من المألوف أن يسقط المطر في كل ساعة .

٤ - وربما كان الوصفُ في كل من المشبه والمشبه به صحيحاً إلا أنهما لا يتلاءمان ، فيشعرُ القارئ أو السامع بتقصير العبارة عن المعنى .

كالذي رُوِيَ من أن ابنَ شرف القيرواني أنشد ابن رشيق(*) قوله :

غَيْرِي جَنَى وأنا المُعَاقَبُ فيكُمُ فكأنَّني سَبَّابَةُ المتنَدِّمِ

وقال له : هل سمعت هذا المعنى ؟ (كأنه معجب بما أتَّفق له من عجيب التشبيه) فقال له ابن رشيق : سمعتُه ، وأخذته أنت فأفسدته . أما الأخذ فمن قول النابغة الذبياني :

لَكَلَّفْتَني(١) ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كذِي العُرِّ(٢) يُكْوَى غيرُهُ وَهُوَ راتِعُ

وأما الإفساد ، فلأن سبَّابَةَ المتندِّم أولُ شيء يتألم منه ، وهذا بخلاف بيت النابغة ، فإن المكويَّ من الإبل يتألم وما به عُرٌّ البتة ، وصاحب العُرِّ لا يألم جُمْلَةً .

فابن رشيق يعيب بيت ابن شرف لأن المشبه به لا يطابق المشبه، فالمشبه هو البريء المعاقب، والمشبه به هو سبابة النادم ، التي يعضّها حين يشعر بما وقع فيه من خطأ . والسبَّابة هي بعضُ الإنسان المخطئ ، فكيف لا يكون عقابها عقاباً له ؟ .

أما بيت النابغة ففيه فصل واضح بين المذنب والمعاقب في كل من المشبه والمشبه به ، فلذلك تطابقاً فوقع التشبيه موقعه .

(*) ابن شرف وابن رشيق ، شاعران ناقدان ، ينتسبان إلى القيروان في شمالي إفريقية ، عاشا في القرن الخامس الهجري.

(١) اللام هي لام الابتداء التي تدل على التوكيد. (٢) الجرب.

فن التشبيه وذوق العصر

والتشبيهات التي مرت بك في الفصول السابقة كلها جيدة متخيَّرة ، وإن تفاوتت درجاتها في الجودة ، واختلفت أساليبها وأغراضها باختلاف العصور ، فقد كان التشبيه في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الأدب العربي يقصد به غالباً إلى تقرير الصفة أو بيان مقدارها ، ثم أخذ الشعراء يميلون إلى المبالغة في الصنعة ، فبحثوا عن الطرافة أو الغرابة ، وتفننوا في التحسين والتقبيح ، أو البرهنة على صحة الدعوى عن طريق التشبيه . وإذا راجعت النماذج السابقة ملاحظة تواريخ أصحابها ، وضح لك أن لذوق العصر أثراً في فن التشبيه .

نماذج من فن التشبيه

للتحليل والمناقشة :

النصوص التالية تشتمل على أنواعِ التشبيهات التي عرفناها في الدروس السابقة . نستطيع الآن أن نستخرج هذه التشبيهات ، ونحلل كل تشبيه إلى عناصره، ونبين نوعه ، وغرضه ، ونحكم على مبلغ جودته :

١ – قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

٢ – وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ ﴾ [يونس: ٢٤]

٣ – وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ﴾ [الحج: ٣١]

٤ – قال رسولُ الله ﷺ :

«إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ وجَليس السُّوء ، كَحَامل المسْك ونافخ الكير . فحاملُ المسك إمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[١] ، وإمَّا أَن تبتاعَ مِنْهُ ، وإمَّا أنْ تَجِدَ منهُ ريحاً طَيِّبَةً . ونافخُ الكيرِ إمَّا أنْ يَحْرِقَ ثيابَكَ وإمَّا أنْ

(١) يعطيك .

تجِدَ منه ريحاً مُنْتِنَةً»(١)

٥ – قال ابن المعتز :

خَلِّ الذنوبَ صَغيرَها وكبيرَها فهوَ التُّقَى
كُنْ مثلَ ماشٍ فوقَ أر ... ضِ الشوكِ يحذَرُ ما يَرَى
لا تَحْقِرَنَّ صَغيرةً إنَّ الجبالَ مِنَ الحصَى

٦ – ولابن المعتز أيضاً :

وكأنَّما النَّارنْجُ في أغْصانِهِ من خالصِ الذَّهبِ الذي لَمْ يُخْلَطِ
كُرَةٌ رَماها الصَّوْلجانُ إلى الهوا فتعلَّقَتْ في جَوِّهِ لم تسقُطِ

٧ – قال المتنبي يمدح سيف الدولة الحمداني ويذكر شبه جفوة منه :

لَعَلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقِبُهُ فربُّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

٨ – قال أبو فراس الحمداني(*) :

ومُضْطَّغِنٍ لمْ يحمِلِ السِّرَ قلبُهُ تَلَفَّتَ ثم اغْتَابني وَهْوَ هائبُ
تردَّى رداءَ الذُّلِّ لَمَّا لَقِيتُهُ كما تتردَّى بالغُبارِ العَناكِبُ

٩ – وقال أحمد شوقي :

وَطَنٌ يرِفُّ هوىً إلى شُبَّانِهِ كالرَّوْضِ ، رفَّتُهُ على رَيْحَانِهِ
هُمْ نَظْمُ حِلْيَتِهِ وجوهَرُ عِقْدِهِ والعِقْدُ قيمتُهُ يتيمُ جُمانِهِ(٢)

(*) أبو فراس : شاعر فارس ، من بني حمدان الذين حكموا حلب والموصل في القرن الرابع الهجري.

(١) متفق عليه .

(٢) الجمان : اللؤلؤ ، واليتيم من الدر : الجوهر الذي لا نظير له .

المجـــاز

نمـــــاذج

(١) قال الله تعالى في الحث على الإنفاق : ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]

(٢) وقال تعالى في شأن المؤمنين يوم القيامة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ٣٠﴾ [الجاثية: ٣٠]

(٣) وقال تعالى في الـكفـار : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ(١) مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ(٢) وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ٥﴾ [فصلت: ٥]

(٤) قال رسولُ الله ﷺ :

«بُنِيَ الإسلامُ على خمس : شهادة أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأَنَّ محمداً رسولُ الله ، وإقامِ الصَّلاة ، وإيتاءِ الزكاة ، وحجِّ البيتِ ، وصَوْمِ رَمَضَان» متفق عليه.

(٥) قال البحتري :

واللَّفْظُ حِلْيُ المعنى ، وليس يريـ ... ـكَ الصُّفْرُ(٣) حُسناً يُرِيكَهُ ذَهَبُهْ

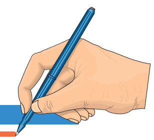
(١) جمع كنان وهو الغطاء .
(٢) ثقل أو صمم.
(٣) النحاس .

(٦) **قال المتنبي من قصيدة يمدحُ بها سيفَ الدولة ويذكرُ بعضَ وقائعه في بلادِ الروم :**

أَغــرَّكُمُ طولُ الجــيــوشِ وعَــرْضُــهــا ‏ ‏ ‏ ‏ عَلِيٌّ شَــــروبٌ للجـــيـــوشِ أَكـــولُ

(٧) **كتب مصطفى صادق الرافعي في فصل عنوانه «شجرات الشتاء» :**

يمَّمْتُهُنَّ ليومَ ، فإذا هُنَّ ذابلات ، عليهنَّ الضُّحى عُرياناً ، وكانَ من وَرَقهنَّ في حُلَلِ الظِّل، وفيهنَّ انكسارُ ذي العاريَةِ كان يَتَجَمَّلُ بعَارِيَتِه ثمَّ رَدَّهَا فما يتوارَى إلا منَ الأعينِ التي كانَ يتعرَّضُ لَهَا من قبلُ . . ويُحسُّ كأنهُ أصبحَ لحناً من خَطأ فاحشٍ في لُغةِ النعمةِ واليسارِ ، لَا يكادُ يُظْهِرُ نفسَهُ إلا قيلَ لهُ : يا غلْطةً تحتاجُ إلى مَنْ يُصَحِّحُها .



ملاحظـــات

إذا تأملت النموذج الأول علمت أن عبارة ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ لا يراد بها الأيدي خاصة ، ولكن المعنى : «ولا تلقوا بأنفسكم» . فهنا حل الجزء «الأيدي» محل الكل «الأنفس» . وبما أن الكلمة المذكورة في الآية الكريمة «بأيديكم» دلت على معنى «**بأنفسكم**» فقد اعتبرها علماء البلاغة «مجازاً» أي طريقاً إلى هذا المعنى الثاني .

وقوله تعالى في آية سورة (الجاثية) ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته**﴾ تضمَّن مجازاً في كلمة «رحمته» ، إذ إنها تدل على معنى «جنته» وهي محل الرحمة ، فكأن هذا المجاز عبَّر عن المكان بما يحلّ فيه .

وأنت لا تفهمين من الحديث الشريف «بني الإسلام على خمس» أن ثمة بناء كهذا المعروف الذي يقام من آجر وبلاط ونحوهما، بل تدركين أن دلالة البناء هنا دلالة «مجازية» أي موصلة إلى المعنى المقصود وهو أن المسلم لا يتم إسلامه إلا بهذه الخمس.

وفي آية سورة (فُصِّلت) نجد مجازات ثلاثةً في كلمة «أَكنَّة» ، وكلمة «وقر» ، وكلمة «حجاب» . فالمراد بقوله : إن قلوبهم في أكنة من دعوة الرسول ﷺ ، أن هذه الدعوة لا تصل إلى قلوبهم ، لأن ثمة ما يحول دونها من جهل أو غرور أو نحوهما ، كما يحول الغطاء الصفيق دون وصول الأشياء إلى ما بداخله .

وكذلك كلمة «الوقر» لا يُراد بها الصمم الحقيقي ، بل إن هذه الدعوة لا تصل إلى آذانهم فضلاً عن أن تتجاوز الآذان إلى العقول .

و «الحجاب» هنا غير الحجاب الحسي المعروف ، بل إن المراد : حاجز معنوي وهو حاجز الكفر والضلال .

وتختلف هذه المجازات الثلاثة عن المجازين السابقين بأن العلاقة بين المعنى الظاهري للكلمة والمعنى المستتر الذي تعبر عنه هي علاقة التشبيه . فالجهل والغرور شُبِّهَا بغطاء أو كنان ، ثم استعمل الجمع «أكنة» ليعبر عن معنى الجهل والغرور وكل ما يلحق بهما من صفات . وكذلك استُعملت كلمة «وقر» لتعبِّر عما يشبه الوقر ، وهو انعدام الشعور بما يُسمع ، وكلمة «حجاب» لتعبر عن شيء يشبه الحجاب وهو الكفر الذي يحجز الكفار عن الإسلام .

ويمكنك أن تلاحظي بناء المجاز على التشبيه في النموذج الخامس ، حيث يشبه البحتري الألفاظ العذبة والتعبير الجميل بالحلي ، فاللفظ الحلو يزين المعنى كما يزين الحلي من يتقلده ، ثم إن الشاعر يبني على هذا التشبيه مجازين : فهو يعبر بالصُّفْر (أي النحاس) عن اللفظ العادي السخيف ، كما يعبر بالذهب عن اللفظ الجميل المنتقى .

وفي النموذج السادس تحكمين بأن كلمتي «شروب» و «أكول» قد استعملتا استعمالاً مجازياً ، فليس الجيش شيئاً يُشرب أو يؤكل ، ولكن إفناء الجيش شُبِّه بالشرب والأكل . وبقي التشبيه مضمراً في الكلام (أي غير ظاهر) وإنما دل عليه وضع الشرب والأكل موضع الإفناء.

وفي النموذج السابع تجدين عدة مجازات مبنية على التشبيه . فاستعمال الوصف «عريان» للضحى استعمال مجازي ، والمراد «مكشوف» ، لأن الكشف يشبه العري . واستعمال «الحُلَل» للظل مجاز كذلك ، والمراد أثر الظل على الأشياء بحيث تبدو وكأنها كاسية . و «الانكسار» ليس وصفاً حقيقياً للأشجار ، وإنما يراد به الذبول .

ومن الطريف أن نلاحظ أن الكاتب ركّب مجازاً فوق مجاز ، بأن جعل المشبه به مشبَّهاً ، وجاء له بمشبه به جديد ، فشبه ذا العارية الذي رد عاريته بخطأ لغوي فاحش في لغة سليمة مستقيمة . وقد تميز هذا الكاتب (المرحوم مصطفى صادق الرافعي) بين كُتَّاب عصرنا بأنه يُكثر من المجازات ويُبْعِدُ فيها ويدخل بعضها في بعض .

مما سبق يتبين أن الكلمة إذا استُعمِلَتْ في غير المعنى الذي جرت العادة باستعمالها فيه سُمِّيتْ «مجازاً» ، كما تسمى حين تستعمل في معناها الذي جرت به العادة «حقيقة».

والمجاز نوعان : فمنه نوع لا يُبنى على التشبيه ، ويسمى «المجاز المُرْسَل» .

ومنه نوع يبنى على التشبيه ، وهو كثير الاستعمال عند البلغاء ، وله اسم خاص وهو «الاستعارة».

فالاستعارة هي المجاز المبني على التشبيه ، أو هي الكلمة المستعملة في غير معناها الحقيقي ، لعلاقة شبه بين المعنى الذي استعملت فيه ومعناها الحقيقي ، وسُمِّيتْ كذلك لأن القائل «يستعيرها» من مجالها الأصلي ليستعملها في مجال آخر.

الاستعـــــارة

عرفنا السر في بلاغة التشبيه ، والاستعارة تتضمن التشبيه، فبلاغتها ، كبلاغة التشبيه تأتي من تقرير الصفة بطريقة مؤكدة، موجزة، قريبة من تجربة السامع أو القارئ. ثم هي تمتاز عن التشبيه بأنها أكثر إيجازاً ، لأنها حَذَفت أحد طرفي التشبيه ، كما أنها أكثر تأكيداً ، لأنها جعلت المشبه داخلاً في جنس المشبه به ، أو مستحقاً لأن يوصف بصفاته .

وستزدادين إدراكاً لبلاغة الاستعارة حين نفصل القول في نوعيها : الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية.

نمـــــــاذج

تميز الطالبة ما استُعمل استعمالاً حقيقياً ، وما استعمل استعمالاً مجازياً من الكلمات التي تحتها خط في النصوص الآتية :

١ – **قال الله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا
أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى
ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٤ – ١٧٥]

٢– **وقال تعالى :** ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ
إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: ٤٢ – ٤٣]

٣ - **قال النابغة الجعدي(*) :**

لَبِستَ أُناساً فأفنيتَهُمْ ... وأفنيْتَ بعدَ أناسٍ أُناسا

٤ - **وقال أبو تمام في الوصف :**

مَطَرٌ يذوبُ الصَّحْوُ منه وبعدَهُ ... صَحْوٌ يكادُ مِنَ النَّضارَةِ يُمْطِرُ

٥ - **وقال البحتري يمدح :**

عالٍ على نظرِ الحَسودِ كأنَّما ... جذبَتْهُ أفرادُ النجومِ بأحبُلِ

٦ - **وقال الشريف الرضي(**) :**

نقولُ : مَقيلٌ(١) في الكرَى(٢) لِجُنوبِنَا ... وهلْ غيرُ أحشاءِ(٣) القُبورِ مَقيلُ ؟

٧ - **وكتب أحمد حسن الزيات(***) :**

اللغةُ العربيةُ جُزءٌ مِنْ حقيقةِ الإسلامِ مَا في ذلكَ شَكٌّ . كانَتْ تُرْجُماناً لِوَحْيِ الله، وَمُعْجِزَةً لِرَسولِهِ ، ولِساناً لدعوتِهِ .

(*) الجعدي : شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم وحسن إسلامه .

(**) الرضي : من أعلام الشعراء في القرن الرابع .

(***) الزيات : كاتب معاصر معروف ، أسس مجلة «الرسالة» التي كان لها صوت مسموع في الحياة الأدبية حوالي منتصف القرن الحالي ، وتوفي منذ سنوات .

(١) مكان للراحة .

(٢) النوم .

(٣) بطن .

٨ - **وكتب عباس محمود العقاد :**

ونحنُ - إذْ ننظُر إلى أعمال عُمَرَ بنِ الخطابِ نقيسُها إلى نظامِ الحُكْمِ في زمانِنَا - واجدونَ فيها كثيراً منَ المُسْتغربات الَّتي تحولُ بيننا وبينَ تقديرِها الصحيحِ للوهلَةِ الأُولى. ولكنَّنا لا نلبثُ أنْ نرفعَ القشرةَ وننفذَ إلى اللّبابِ حتى تزولَ الغرابة ونرى في مكانِهَا أحياناً ما يصلُحُ كلَّ الصلاحِيَةِ للتفسيرِ حتى بمبادئِ هذا العصرِ الأخيرِ.

الاستعـــارة التصريحيـــة

نمـــــاذج

(١) قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم(١) بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠]

(٢) وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧﴾ [نوح: ١٧] .

(٣) وقال رسول الله ﷺ :

«لا يَدْخُلُ الجنةَ مَنْ في قلبه مثْقَالُ ذَرَّة(٢) مِنْ كِبْرٍ» رواه مسلم(*) .

(٤) قال الشريفُ الرَّضِيُّ يصفُ الشَّيْبَ :

مَـــا كـــانَ أغْنَى لَيلَ ذا الـ . . .   مَـــفْـــرِق عَنْ ضَـــوْءِ القَـــمَـــرْ

قَـــدْ كـــانَ صُـــبْحُ لَيلِه   أَمَـــرَّ صُـــبْـــحٍ يُنْتَظَرْ

(٥) وقال المتنبي يمدح سيف الدولة :

لَكَ الحَـــمْـــدُ في الدُّرِّ الذي لِي لَفْظُهُ   فــإنكَ مُـــعْطِيـــهِ وَإنِّـي نـَاظِمُ

(*) وتتمة الحديث : فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعلُهُ حسناً قال : «إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس» أي الكبر هو دفع الحق على قائله واحتقار الناس.

(١) كسبتم .

(٢) وزن نملة .

ملاحظـــات

لن نجد صعوبة في استخراج الاستعارات من هذه النماذج، بعد أن وضح لنا من الدرس الماضي تعريف الاستعارة .

فقوله «يتوفَّاكم» في الآية الكريمة الأولى ، استعارة ، وكذلك «يبعثكم» . وقد بُنيت الاستعارة الأولى على تشبيه النوم بالوفاة، ولكن المشبه لم يذكر في الكلام، بل استعير لمعناه لفظ المشبه به ، أي أن المشبه به حل محل المشبه ، وفهمنا من كلمة «الليل» أن المراد هو النوم لا الوفاة الحقيقية.

وكذلك بُنيت الاستعارة الثانية على تشبيه اليقظة بالبعث ،وطُوِيَ ذكر المشبه وذُكر المشبه به بدلاً منه ؛ فكان هذا الأسلوب أقوى في تشبيه النوم بالوفاة ، واليقظة بالبعث، مما لو جاء المعنى على أسلوب التشبيه ، فإنك حين تسمين النوم وفاة لا تجعلينه شبيهاً بالوفاة ، بل تجعلينه نوعاً من الوفاة ، كذلك حين تسمين اليقظة بعثاً تجعلينها نوعاً من البعث . وهكذا تؤنسنا الآية الكريمة بفكرة البعث بعد الموت لأنها تردُّ الحقيقة الغيبية إلى تجربتنا اليومية ، وتشعرنا بأن اليقظة بعد النوم ليست إلا صورة مصغرة من حقيقة أكبر .

وقوله «أنبتكم» في آية سورة (نوح) استعارة أيضاً ، شَبَّه الخَلْق بالإنبات ، وذكر المشبه به عوضاً عن المشبه ، ودل إيقاع «الإنبات» على ضمير المخاطبين على أن المراد به الخلْق . وتلمحين إعجاز العبارة القرآنية حين تلحظين أن خلق الإنسان لم يجعل شبيهاً بالإنبات فقط ، بل جُعِل هو نفسه إنباتاً، فالإنسان ينشأ من بذرة ، ثم ينمو ويترعرع ، ثم يشيخ ويذبل . فأشارت هذه الاستعارة إشارة موجزة إلى ما فصلته الآية الكريمة :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [غافر: ٦٧]

وعبارة «مثقال ذرة» في الحديث الشريف تعني أقل مقدار يمكن تصوره . فشبه أقل مقدار بوزن نملة ، وحذف المشبه ووضع المشبه به مكانه . ودل ذكر «القلب» و «الكبر» على أن المراد هو «أقل مقدار» فإن مشاعر القلب لا توزن في الدنيا ، وإنما توزن أعمال الناس يوم القيامة .

وفي بيتي الشريف الرضي عدة استعارات ، فمفرق الشعر ليس له ليل ، ولكن له لون سواد ، فجعل الشاعر كلمة «ليل» (المشبه به) مكان كلمة «سواد» (المشبه) ، وأدركنا المعنى المقصود لأنه أضاف «الليل» إلى «المفرق» «ليل ذا المفرق» ؛ وعاد فأكّد هذه الاستعارة أو «رَشَّحها» (كما يُقال في علم البلاغة) بأن عبر عن المشيب بضوء القمر الذي يصاحب الليل .

وفي البيت الثاني استبقى استعارة الليل للشعر الأسود ، ولكنه جعل المشيب صبحاً بعد أن كان في البيت الأول ضوء القمر ، وركّب استعارة فوق استعارة ، بأن جعل هذا لصبح «مُرّاً» والمرارة صفة لما يذاق ، والنفس تجزع من الطعم المر ، فشبه جزع النفس من المشيب بجزعها من شراب مر ، وحذف المشبه وأقام المشبه به مكانه .

ولا يخفى عليك أن «الدر» الذي يتحدث عنه المتنبي ليس هو بالدر الحقيقي ، ولكنه الشعر البارع ، فالإشارة إلى «اللفظ» تدل على ذلك (لك الحمد في الدرّ الذي لي لفظه) ولكن الشاعر سمى المشبه باسم المشبه به ، وزعم أنه لم يفعل شيئاً سوى أنه «نظم» هذا الدر ، أي أنه عبر بألفاظ شعره عن سجايا سيف الدولة وأعماله المجيدة التي هي أصل الشعر . وفي كلمة «ناظم» صنعة طريفة ، لأنها تدل على «نظم» الشعر و«نظم» الدرّ في وقت واحد ؛ وهذا أسلوب من أساليب البديع سنعرض له في ما بعد .

ففي جميع هذه الاستعارات تُنوسِي المشبه ، وعُبِّرَ عنه بلفظ المشبه به . وإنما يفهم القارئ أن المقصود هو المشبه ، لدلالة السياق على ذلك.

ويسمى هذا اللون من الاستعارة «استعارة تصريحية» لأن القائل «صَرَّحَ» باسم المشبه به ، فكأنه «صَرَّحَ» بالتشبيه نفسه أو أظهره وإن كان قد حذف المشبه . ولابد في سياق الكلام من دليل على أن اسم المشبه به لم يستعمل في معناه الحقيقي ، بل أشير به إلى المشبه ، ويسمى هذا الدليل «قرينة الاستعارة» .

نماذج من الاستعارة التصريحية تحللها الطالبة على النحو السابق :

١ – قال الله تعالى في قصة زكريا عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ[1] الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ ﴾

[مريم: ٤]

٢ – وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ[2] مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ﴾ [الحج: ٥٥]

٣ – وقال تعالى :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ ﴾ [يس: ٣٧]

٤ – قال أبو خراش الهذلي(*) :

أَرُدُّ شُجَاعَ[3] البَطْنِ قَدْ تَعْلَمِينَهُ ... وأوثِرُ[4] غَيْرِي مِنْ عِيَالِكِ بالطُّعْمِ

٥ – وقال أبو تمام يذكر هُزَال بعيره من طول السفر :

رَعَتْهُ الفَيافِي[5] بَعْدَمَا كانَ حِقْبَةً[6] ... رَعَاها وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ

٦ – وقال المتنبي يمدح عضد الدولة ويذكر ولديه :

فَلَمْ أرَ قَبْلَهُ شِبْلَيْ هِزَبْرٍ[7] ... كَشِبْلَيْهِ ولا فَرَسَيْ رِهَانِ

(*) الهذلي : شاعر جاهلي أدرك الإسلام وحسن إسلامه .

(١) ضعف .

(٢) شك .

(٣) ثعبان .

(٤) أفضلهم على نفسي .

(٥) الصحارى.

(٦) زمناً .

(٧) أسد .

٧ - **وقال مصطفى لطفي المنفلوطي(*) :**

ضَـــحِـكــاتُ الشـــيـبِ في الشَّـعَـــرِ　　لَمْ تَـــدَعْ في العَـــيْـــشِ مِـنْ وَطَـــرْ

٨ - **وقال خليل مردم(**) :**

للّه مـــا صنعَتْ ومـــا جـــادَتْ بِه　　في الغُـــوطتَـــيْنِ يدُ الربيعِ البـــاكِـــرِ
بسَطَتْ وثيـــرَ قطيـــفَـــةٍ فـــوْقَ الثَّـــرَى　　خـــضـــراءَ فـــيـــهـــا كُـــلُّ لـــونٍ زاهـــرِ

٩ - **وقال أحمد رامي :**

كـــمْ في الصِّـــبـــا مِنْ غُـــصُـــنٍ ناضِـــرٍ　　وأيـكَـــةٍ في ظِـــلِّـــهِ المسْـــــــتطـابْ

١٠ - **كتب علي الطنطاوي في قصة «هجرةُ معلم» (الحجاج بن يوسف الثقفي) :**

في طرف منْ أطراف هذه القرية ، كانَ يجثُمُ بيتٌ صغيرٌ منفردٌ قائمٌ على شفير الوادي ، إذا أنْتَ دخلْتَ لمْ تَجِدْ فيه إلاَّ طائفةً منَ الأولاد ، يجلسونَ على حصير قدْ ماتَ وفَنِيَ، وتقطَّعَتْ أوصالُهُ[1] منْ قبلِ أنْ يولدوا ، وَشاباً على حَشَيَّة قَدْ طَعَنَها الزمانُ فَنَثَرَ أَحْشاءَها.

(*) المنفلوطي : كاتب مصري معاصر . توفي سنة ١٣٤٣هـ .
(**) خليل مردم : أديب وشاعر سوري معاصر .
(١) المفاصل والأعضاء .

الاستعــــارة المكنيّـــــة

نمــــــاذج

(١) قـال الله تعـالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٢٤]

(٢) قال رسول الله ﷺ :

« **عليكُم بالدُّلْـجَـةِ** [١] ، **فإنَّ الأرضَ تُطْوَى بالليلِ** » رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٣) **قال أبو العتاهية** (*) :

يا خـــاطِبَ الدُّنيـــا إلى نفـــسِــهَـــا ... تَـنَــحَّ عنْ خِطْبَــتِــهَــا تَسْـــلَـــمِ
إنَّ الـتـي تخطُـبُ غَـــــرَّارةٌ ... قــــريبـــــةُ الـعُـــــرسِ مِنَ المأتَمِ

(٤) **قال ابن المعتز يصف زهر النرجس :**

نَرْجِـــسَـــةٌ لا تَزالُ مُـــحـــدقَـــةً ... لمْ تكتـــحِلْ قَــطُّ لـذَّةَ الغَـــمْضِ
أمـــالَهـــا القَطْرُ فـــهيَ باهتـــةٌ ... تنظـــرُ فـــعلَ الســمـــاءِ بالأرضِ

(٥) **كتب طه حسين** (**) **في قصة آل ياسر ، من كتابه «الوعد الحق» :**

ويجبُ أن نسجلَ أنَّ التاريخ لم يبحثْ عن ياسرٍ ولا عنْ بنيهِ ، وإنما أقبلَ ذاتَ يومٍ على مكةَ ليرى بعضَ

(*) أبو العتاهية : من أعلام الشعر في أوائل دولة العباسيين ، انصرف إلى الزهد وأكثر من ذكر الموت في قصائده .
(**) طه حسين : من أعلام الأدب العربي في العصر الحديث ، توفي سنة ١٣٩٣هـ.
(١) السير في الليل .

ما يجري فيها منَ الأَحداث ، فلمْ يكدْ يبلغُ المسجدَ حتى رأى أنديةَ قريشٍ هائجةً مائجةً تتحدَّثُ عَنْ محمدٍ وعنْ دعوتهِ وَعمَّنْ تَبِعَهُ منَ المستضعفين والرقيق ، وقد تذكَّرَ دارَ الأرقمَ بن أبي الأرقمِ التي اتَّخذها محمدٌ ﷺ لنفسهِ ولأصحابِهِ نادياً ينشرُ منهُ دعوتَهُ هذه الرائعةَ المروِّعةَ ، فتحوَّلَ التاريخُ عَنْ هذهِ الأنديةِ الصاخبةِ إلى دار ابنِ الأرقمِ ليرى محمداً وأصحابهُ ويسمعَ منهم .

ملاحظـــات

لعلك تشعرين منذ القراءة الأولى لهذه النماذج أن ههنا نوعاً من الاستعمال المجازي يقوم على تشبيه غير مصرَّح به في الكلام ، أي أن هنا استعارة ، ولكنها تختلف عن الاستعارة التصريحية التي عرفناها في الدرس السابق . فكلمة «جناح» في الآية الكريمة تدل على أن ثمة استعارة ، فالمخاطب ، وهو الإنسان ، ليس من ذوي الجناح ، وإذا بحثت عن شيء في الإنسان شُبِّهَ بالجناح لم تجدي ، ولكنك تتمثلين صورة طائر قد خفض جناحيه مستكيناً هادئاً ، وربما خطر ببالك عكس هذه الصورة : طائر باسط الجناحين كأنه يهم بالطيران أو يهم بالبطش ، فتدركين أن الإنسان شبه بحال ذلك الطائر الذي يطامن جناحيه ، فهكذا يجب أن يبدو في معاملته لأبويه .فكلمة «جناح» دلت على المشبه به (الطائر) ، ولكن المشبه به نفسه لم يذكر في الكلام ،بل حُجِبَ أو سُتر ، والكناية تعني السَّتر ، ولذلك تسمى هذه الاستعارة استعارة مكنية .

وفي الحديث الشريف :« إن الأرض تُطوى بالليل » تشبيه للأرض بالبساط ، أو الشقة من القماش ، في أن تكون ممتدة فتُقَصَّر بالسفر ، كما يُقَصَّر البساط أو الشقة من القماش بالطيّ . ولكن المشبه به لم يذكر نصّاً في الكلام ، وإنما ذُكرت «قرينة» له ، أي كلمة «تطوى» تقرن به وتدل عليه ، وهي الطي .

وفي بيتي أبي العتاهية (النموذج الثالث) عدة «قرائن» تشير إلى المشبه به : خاطب خطبة، تخطب، غرارة، العرس ، المأتم . وهي مجتمعة تمثل لنا الدنيا في صورة عروس خادعة المظهر مشؤومة المخبر .

أما ابن المعتز فإنه يصور لنا زهرة النرجس في صورة إنسانة ساهرة شاحبة اللون ، وكأنها حزينة ، وهو لا يذكر المشبه به صراحة ، بل يدل عليه بعدد من الأوصاف «أو القرائن». (هل تستطيعين أن تعددي هذه القرائن؟) .

وأسلوب الاستعارة المكنية في (النموذجين الثالث والرابع) يعرف عند النقاد المحدثين بأسلوب «التشخيص» ، أي تصوير الأفكار المجردة أو الأشياء المحسوسة أو الحيوانات العجماء في صورة إنسانية . (والنموذج الخامس) من نثر طه حسين يبلغ من هذا التتشخيص مبلغاً بعيداً حيث يصور التاريخ وكأنه إنسان يتجول في أنحاء مكة وبين أندية قريش يرى ما يحدث ويسمع ما يقال .

نخلص مما سبق إلى أن الاستعارة المكنية نوع من المجاز يقوم على التشبيه كالاستعارة التصريحية ، إلا أن المشبه به لا يظهر في الكلام بل يبقى مستوراً.

فاللفظ الذي يستعار في الاستعارة المكنية ليس هو لفظ المشبه به ، بل لفظ يرتبط به أو يدل على صفة من صفاته ، فينسب هذا اللفظ إلى المشبه .

وإذا بُنِيَتْ الاستعارة المكنية على تشبيهِ فكرةٍ مجردة أو جماد أو نبات أو حيوان بإنسان ، فإنها تسمى «تشخيصاً».

نماذج من الاستعارة المكنية تحللها الطالبة على النحو السابق :

١ – **قال الله تعالى** في قصة موسى عليه السلام حين عاد إلى قومه بالألواح فوجدهم اتخذوا العجل من بعده :

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾

[الأعراف: ١٥٤]

٢ – **قال أبو ذؤيب الهُذَلـيّ**(*) :

وإذا المنيـــَّــةُ[١] أَنْشـــبَتْ أظفــارَها ... ألفَــيْتَ[٢] كُلَّ تميـــمـــةٍ لا تنفَعُ

٣ – **وقال أبو العتاهية :**

راكبُ الأيامِ يجـري عليْـهـا ... ولَـهُ مِـنـهـنَّ يـومٌ حَــرُونْ

٤ – **وقال يمدح الخليفة هارون الرشيد :**

أَتَـتْــهُ الخــلافَـةُ مُـنْـقَـادةً[٣] ... إلـيــهِ تُجَــرِّرُ أذيــالَهـا

٥ – **وقال ابن الرومي يصف الورد :**

خَــجِلَتْ خــدودُ الوردِ مِنْ تفْـصِيلِه ... خَــجَــلاً تَـوَرُّدُها عليــهِ شَـاهدُ

---

(١) الموت .

(٢) وجدت .

(٣) طائعة .

٦ – **وقال المتنبي :**

إذا ما لَبِسْتَ الدهرَ مُسْتَمتِعاً بِهِ   تَخَرَّقْتَ والملبوسُ لمْ يَتَخَرَّقِ

٧ – **وقال ابن المقرِّب :**

اليومَ أسفرَ وجهُ الحظِّ وانبسَطَتْ   يدُ الرجاءِ وزالَ الهمُّ والنَّصَبُ

٨ – **وقال إسماعيل صبري**(*) :

كمْ ساعةٍ آلمني مَسُّها   وأزعجَتْنِي يدُها القاسِيَهْ

٩ – **وكتب أحمد حسن الزيات يصف الربيع :**

منذُ أيامٍ تيقَّظَتْ الطبيعةُ منْ رُقادها الطويل ، وأخذَتْ تنضَحُ جفْنَها الوسنانَ[1] بأنداء الربيع ، وتبحَثُ عن حُلَلِها وحُلاها في خزائنِ الأرضِ ، وتأهَّبَ كلُّ حيٍّ ليحتَفِلَ بجمالِهَا العائدِ وشبابِها المبعوثِ.

١٠ – **وكتب علي الطنطاوي في قصة بعنوان «آخر أبطال غرناطة» :**

لمْ تَشهَدْ اليومَ الواحدَ والعشرين منَ المحرمِ سنة ٨٩٧هـ . حينما أطَلَّتْ على غرناطةَ ، تلكَ المدينةَ الضاحكة للحياة ، الساكنة إلى النعيمِ ، السابحة في جوِّ النغمِ العذْب والعطْرِ الأريج . بلْ رأَتْ مدينةً واجمةً حَيْرَى ، قد أقفرَتْ من الرِّجالِ ، رابَطَتْ حيالَ الأسْوارِ ، هيَ بقيةُ ذلكَ الجيشِ الذي دانَتْ له أسبانيا كلُّها ، وأظلَّتْ ألويةَ فرنسا وإيطاليا .

(*) إسماعيل صبري : أكثر شعراء المصريين شهرةً في الجيل الذي تلا البارودي وسبق جيل شوقي ، عرف برقة شعره توفي سنة ١٣٤١هـ.
(١) النعسان .

الاستعارة الجيدة والاستعارة الرديئة

النماذج السابقة من الاستعارة بنوعيها ، استعارات جيدة لأن المشبه والمشبَّه به يتوافقان ويتحدان حتى يكوِّنا معنى واحداً . فقد رأيت أننا في الاستعارة التصريحية نستغني عن ذكر المشبه ونشير إليه باسم المشبه به ، ولكننا نأتي في سياق العبارة بقرينة تدل على المشبه ، فكأننا مزَجْنا المعنيين لنُخرج منهما معنى مبتكراً . وتجدين فكرة امتزاج المعنيين أكثر وضوحاً في الاستعارة المكنية ، حيث نجعل للمشبه صفات المشبه به .

وإذا عدت إلى بعض النماذج السابقة تبينت ذلك . فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾(١) يضيء لذهن السامع معنى جديداً للنوم واليقظة، وهو أنهما موت وبعث مستمران ، ومن ثم يبقى الإنسان ذاكراً للموت وهو على قيد الحياة ، موقناً بأن ثمة حياة بعد الموت الأكبر . وتصوير أبي العتاهية للدنيا صورة عروس غرَّارة ، قريبة العرس من المأتم ، يجعل لها في ذهن السامع أو القارئ معنى جديداً ؛ فهي عروس يتنافس الناس في خطبتها ، ناسين أن بهجتها سريعة الزوال، وكأن الشاعر هنا لا يتحدث عن الدنيا من ناحية ، والعروس من ناحية أخرى ، مقارناً بينهما (كما هو الشأن في التشبيه) ، بل يتحدث عن «دنيا عروس» أو عن «عروس دنيا» أي أنه يجيئنا بمعنى مركب من المعنيين .

ولا يصلح مثل هذا المزج إن لم يكن وجه الشبه بين المعنيين قوياً بحيث يستقيم المعنى الجديد ، ولا يتأتَّى الابتكار إن كان المعنيان شديدي التقارب بحيث ينتقل الذهن من أحدهما إلى آخر دون أن يشعر بهذا الانتقال .

(١) الأنعام ٦٠ .

ومن هنا يظهر أن الاستعارة تكون معيبة من إحدى جهتين : إما أن يكون بين المشبه والمشبه به تنافر يجعل الجمع بينهما غير مستساغ .

وإما أن يكون بينهما تقارب في الذهن يكاد ينسى معه المعنى الحقيقي لكل منهما .

فما عِيبَ من الاستعارات لتنافر المشبه والمشبه به قول أبي تمام :

لا تَسْقِني مَاءَ المَلامِ فإنَّني صَبٌّ قَدِ اسْتعذَبْتُ ماءَ بكائي

فما وجه استعارة الماء للملام ؟ هل شبه الملام بشيء يُعْصَرَ حتى يكون له ماء ، كما يقال «ماء الورد» مثلاً ؟ وما العلاقة بين المشبه والمشبه به في هذه الحالة ؟

ومن الاستعارات التي شاعت حتى فقدت قيمتها استعارة الأسد للرجل الشجاع ، والشمس للوجه الجميل ، والنجم للإنسان المشهور ، والذئب للرجل الشرير الخائن . وربما تصرف شاعر أو كاتب في مثل هذه الاستعارات ليكسبها شيئاً من الطرافة ، كما في هذا البيت الذي ينسب لأبي نواس، يصف حسناء باكية :

تبكي فتُذْري الدُّرَّ منْ نَرْجسٍ وتلْطُمُ الوردَ بعُنَّابِ

فاستعارة اللؤلؤ للدمع ، والنرجس للعيون ، والورد للخدود ، والعُنَّاب للأنامل ، كلها استعارات مألوفة ، ولكن الشاعر جمع هذه الأربعة في بيت واحد فأكسبها شيئاً من الطرافة .

نـمــاذج من الـمـجــاز والاستعــارة

للتحليـل والمناقشة :

بعض النصوص التالية تشتمل على مجاز مرسل ، ومعظمها تشتمل على استعارات تصريحية أو مكنية . ميِّزي كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة ، وحللي الاستعـارة بنوعيهـا ، مبينـة التشبيه الذي بنيت عليه ، وكيف تحوّلت من تشبيه إلى استعارة ، وتأثيرها في المعنى بالنسبة إلى السياق الذي وردت فيه :

(١) قال الله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [الآية ١٨٧ من سورة البقرة] .

(٢) وقال تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [الآية : ١٩٧ من سورة البقرة] .

(٣) وقال تعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الآية : ١٢٢ من سورة الأنعام]

(٤) وقال تعـالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة البقرة]

(٥) وقال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

[من سورة النحل]

(٦) وقــال تعــالــى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (من سورة التوبة) .

(٧) قال ابن المعتز :

فــالآن قَــدْ كـشفَ الزَّمـانُ قِناعَـهُ ... لبـصيـرتي وحَلَلْتُ في دارِ النُّهَى[١]

(٨) قال البحتري :

لي صاحبٌ ليسَ يخْلو لسانُهُ مِنْ جِراحِ
يجيدُ تمزيقَ عِرْضي على سبيلِ المِزاحِ !

(٩) قال ابن خفاجة[*] :

سَجَعْتُ[٢] وقد غَنَّى الحمامُ فرجَّعا ... ومَا كنتُ لولا أن تَغَنَّى لأِسْجَعا

(١٠) قال إيليا أبو ماضي من قصيدة بعنوان « المساء » :

السُّحْبُ تركضُ في الفضا ... ءِ الرَّحْبِ ركْضَ الخَائفينْ
والشمسُ تبدو خلفَها ... صفراءَ عاصبةَ الجبينْ
والبدرُ ساجٍ صامِتٌ ... فيهِ خُشوعُ الزاهدينْ

(١١) كتب جبران خليل جبران[**] :

في هدوء الليلِ جاءتْ الحكمةُ ووقَفتْ بقربِ مضْجَعي ، ونظرَتْ إليَّ نظرةَ الأمِّ الحنونِ ومسحَتْ

(*) ابن خفاجة : من مشاهير شعراء الأندلس في القرنين الخامس والسادس للهجرة ، اشتهر بإجادة الوصف.

(**) جبران : عميد المهجر الشمالي، توفي سنة ١٣٤٩ هـ .

(١) العقل .

(٢) السجع في أصل معناه : صوت الحمام.

دموعي وقالَتْ : سمعتُ صراخَ نفسِكَ فأتيتُ لأُعزِّيها . ابْسُطْ قلبكَ أمامي فأملؤه نوراً .

جرِّبي قلمك

هطلَتْ أمطارٌ غزيرةٌ ذاتَ يومٍ مِنْ أيامِ الربّيع . صفي بعض مشاهد ذلك اليوم مستخدمة التشبيه والاستعارة.

الكِنـــايـة

نمـــــاذج

« أ »

(١) قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ ﴾ [سورة الأحزاب] .

(٢) قال المتنبي يصفُ وقعةً لسيف الدولة في بني كلابٍ حينَ خرجوا عليه :

فَمَسَّاهُمْ وبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ ... وصَبَّحَهُمْ وبُسْطُهُمُ تُرابُ

(٣) كتبَ مصطفى لطفي المنفلوطي :

أنا لا أغبِطُ الغنيَّ إلاَّ في موطنٍ واحدٍ من مواطنِه : إنْ رأيتُه يُشْبِعُ الجائعَ ، ويواسي الفقيرَ ، ويعودُ بالفضلِ من مالِه على اليتيمِ الذي سلبَهُ الدهرُ أباه ، والأرملةِ التي فجعَها القدرُ في عائِلها ، ويمسحُ بيدِه دمعةَ البائسِ والمحزونِ .

« ب »

(١) قال الله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥ ﴾ [سورة القارعة] .

(٢) عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه قَالَ :

قال رسول الله ﷺ : «**أَكْثِروا ذِكْرَ هادمِ**[١] **اللَّـذاتِ**» يعني الموت . رواه الترمذي وقال : حديث حسن

(٣) قال شوقي يخاطبُ المسلمين:

أُمَمَ الهِـــلالِ ! مـــقـــالةً مِنْ صـــادقٍ والصــــدقُ أَلْيَقُ بالرجـــالِ مَـــقَـــالا

« جـ »

(١) قــال الله تعـالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

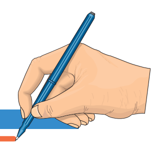
[سورة الإسراء]

(٢) قال رسول الله ﷺ :

« **الخيْلُ مَعقودٌ في نواصِيها الخيرُ إلى يومِ القيامَةِ**» متفق عليه .

(٣) قال الشريفُ الرضِيُّ:

ألا مَنْ كـنـتُ شـــاعِـــرَهُ فـــإنَّ المَـجْـــدَ شـــاعِرُهُ



ملاحظـــات

تأملي نماذج المجموعة الأولى (أ) تجدي ألفاظاً تعبر عن أوصاف معينة بطريقةٍ غير مباشرة . ففي قوله تعالى : «وإذْ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجر» دلالة على الكرب الشديد .

(١) قاطع ، وقيل هادم أيضاً .

وفي قول المتنبي «وبسطهم حرير» دلالة على حالة النعيم والترف . وفي قوله «وبسطهم تُراب» دلالة على حالة الخراب والضنك.

وفي قول المنفلوطي «يمسح بيده دمعة البائس والمحزون» دلالة على الشفقة والرأفة .

فالمعنى الظاهر للكلام ليس بمقصود لذاته، بل لدلالته على معنى أبعد منه أو أشمل. فكأنك حجبت هذا المعنى البعيد وراء المعنى الظاهر، أو كنّيته ، ولذلك يسمّى هذا الأسلوب (الكناية) ، **وظاهر أن المعنى المُكَنَّى هنا (ويقال أيضاً : المكْنِيُّ عَنْهُ) وصف من الأوصاف .**

تأملي الآن نماذج المجموعة الثانية (ب) ، تجدي فيها كنايات أيضاً . (فالقارعة) كناية عن يوم القيامة ؛ و(هادم اللذات) كناية عن الموت ، و(أمم الهلال) كناية عن شعوب المسلمين . **ولعلك تلاحظين أن المكْنِيَّ عنه هنا ذاتٌ ، دلَّتْ عليها العبارةُ دلالةً غيرَ مباشرة ،** بوصف (القارعة) أو إضافة (أمم الهلال) أو بهما معاً (هادم اللذات) . وقد يدل على الذات بأسلوب آخر ، كما في قول البحتري يصف قتله الذئب :

فأَتْبَعْتُها أخرى فأضلَلْتُ نصْلَها بحيثُ يكونُ اللبُّ والرعبُ والحِقدُ

فأتبعتها أخرى : أي أتبعت الطعنة الأولى طعنة أخرى . والكناية هنا في قوله : «حيث يكون اللب والرعب والحقد» فقد دلَّ به على «القلب» .

أما المجموعة الثالثة (ج) **فالكناية أو الدلالة غير المباشرة فيها لا تتناول الوصف ولا الذات، بل نسبة الوصف إلى الذات .**

فالمعنى المباشر في قوله تعالى «ألزمناه طائره في عنقه» عَلَّقنا طائره بعنقه ، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يتفاءلون أو يتشاءمون بحركات الطيور ، فإذا مر الطائر أمام إنسان من جهة شماله إلى جهة يمينه (ويسمى «السانح») تفاءل به ، وإذا مر من جهة يمينه إلى شماله (ويسمى «البارح») تشاءم

منه . فأرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى أن أسباب الخير والشر راجعة إلى إرادة الله ومرتبطة بطبيعة الإنسان ، فالمعنى القريب (نسبة تعليق الطائر بالعنق إلى الله تعالى) كناية عن نسبة أخرى، وهي نسبة الحوادث كلها من نجاح أو خيبة يصيبان الإنسان وجعل مسؤوليتها على الإنسان نفسه ، وهذا هو المعنى المقصود.

ومثل ذلك يقال في الحديث الشريف : «**الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة**» فالمعنى القريب هو تعليق الخير (أيّاً كان نوعه) بنواصي الخيل ، أي الشعر الذي على رؤوسها، والمعنى البعيد هو أن الخيل ذاتها أداة قوة ومنعة .

والمعنى في بيت الشريف الرضي هو شعره في مديح إنسان ما ، يعلي شأن ذلك الإنسان. ولكنه عبر عن نسبة الإعلاء إلى شعره بطريق غير مباشر ،فبدأ بأن نسب إلى نفسه قول الشعر في ممدوح ما ، ثم زعم أن هذه النسبة مساوية لنسبة قول الشعر إلى المجد نفسه ، فخرجنا من هذه المعادلة بالنسبة المقصودة وهي نسبة التمجيد أو الإعلاء إلى شعره .

الفرق بين الكناية والمجاز :

في جميع هذه الأقسام لا ترين لفظاً أخرج من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي . وذلك واضح في القسمين الأول والثاني ، ولكنه قد يلتبس عليك في بعض نماذج القسم الثالث . فإذا خالجك شك في أن قوله تعالى : «ألزمناه طائره في عنقه» مجاز ، فتأملي العبارة جيداً ، هل ترين قرينة تمنع أن يكون لكل إنسان طائر ما معلق في عنقه ، ولو كان طائراً لا يُرى حساً ، كما أن لكل منا ملكين عن يمينه وشماله لا يراهما ولا يحسهما ؟ فإذا لم تكن ثَمة قرينة تمنع منَ إرادة المعنى الحقيقي ، فالأسلوب إذن كناية وليس مجازاً .

وما قلناه عن الكناية التي وردت في الآية الكريمة ، يمكن أن يقال مثله عن الكناية التي وردت في الحديث الشريف ، وفي بيت الرضي .

فالكناية هي الدلالة على المعنى المقصود بطريق غير مباشر ، دون أن يخرج اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي .

بلاغـــة الكنـــاية

الكناية فن من فنون البيان يمثل المعنى لخيالك ، لأنه يقدم لك لوازمه التي تدركينها بحواسك ، أو تشعرين بها بوجدانك . فالشدة أو الكرب معنى يتصوره الإنسان بفكره ، أي أن يدركه إدراكاً مُجَرَّداً كما يدرك العدد (رقم ٥) مثلاً ، وكذلك فكرة الشدة أو الكرب . أية شدة وأي كرب ؟ هناك أنواع ودرجات من الشدة والكرب ، والتعبير بالكناية يضع أمامنا الإحساس الواضح المحدد ، ويتركنا نستنتج الفكرة بأنفسنا . ولذلك تأتي قوته من جهتين : الأولى تمثيل المعنى للحواس والوجدان ، والثانية تنشيط الذهن للبحث عن المعنى المستتر وراء الصورة . وتضاف إلى هاتين الجهتين جهة ثالثة وهي طرافة التعبير . فهناك تعبيرات شاعت على الألسن حتى لم تعد تثير الاهتمام ، كما هو الشأن في كل الأشياء التي يتعود الإنسان رؤ يتها أو سماعها ، ولكننا نعمد إلى أسلوب ا لكناية لنتجنَّب التعبير المألوف ونأتي بتعبير جديد ربما كان يطرق الأسماع لأول مرة ، فيشتد انتباه السامع له ويعمق أثره في ذهنه . تأملي مثلاً هذه الكناية القرآنية : «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» ، فهذا تعبير لا يمكن أن ينسى ، لأنه جاء بصورة مضادة للصورة المألوفة ، فالطائر الذي يتفاءل الإنسان به أو يتشاءم منه يمر على بعد منه ، وربما مرَّ بين يديه ، أما أن يكون معلقاً في عنقه وملازماً له ، فهذه هي الصورة التي تشد الانتباه وتحفز العقل إلى التأمل .

وبعض الكنايات قد شاع استعمالها حتى فقدت قيمتها . يقولون مثلاً : «فلان خفيف القلب»، أي سريع الانزعاج ، «وفلان بابه مفتوح» أي معْوان ويقولون : «سار بخطاً ثقيلة» أي مفكراً أو مهموماً، و «جاء منكس الرأس» أي خاضعاً ذليلاً . فهذه الكنايات وأمثالها قد لحقت بالاستعمالات العادية وفقدت ما كان لها من طرافة ، فأصبح تأثيرها في نفوس السامعين ضعيفاً ، وإن كانت في أصلها كنايات جيدة ، لأنها مبنية على صور تثير الخيال .

نماذج من الكناية للتحليل والمناقشة

إليك الآن نماذجُ من الكنايةِ ، تتضمَنُ الأنواعَ الثلاثة التي عرفْتِهَا . استخرجي الكنايةَ من سياق النص ، واشْرَحيِ المقصودَ بها وبيِّني أثرها في تقوية المعنى العام :

(١) قالَ الله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا[١] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ[٢] عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

(٢) وقالَ تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ[٣] ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الشورى]

(٣) قال رسول الله ﷺ :

«لأَنْ أَقولَ سُبحانَ الله والحمد لله ولاَ إلهَ إلاَّ الله والله أكبرُ ، أحبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عليهِ الشمْسُ»

رواه مسلم

(٤) قال امرُؤ القيسِ :

وقَدْ أَغْتَدِي[٤] والطَّيرُ في وُكُناتِها[٥] بِمُنْجَرِدٍ[٦] قَيْدِ الأَوابِدِ[٧] هَيْكَلِ[٨]

---

(١) شديد الضيق .
(٢) العذاب .
(٣) الأعلام : الجبال .
(٤) أخرج في الصباح .
(٥) أوكارها .
(٦) خفيف الشعر .
(٧) لا تفوته الوحوش فكأنه يقيدها .
(٨) ضخم.

(٥) **وقال ابنُ الدُّمَيْنَةَ(*) :**

هَواي بِهــذا الغَــوْرِ غَــوْرِ تِهــامــةٍ ... وليسَ بهــذا الحي مِنْ مســتــوى نَجْــدِ

(٦) **وقال البُحتريُّ :**

ليسَ مِنْ دوني الحِــجــابُ على المر . . ... ءِ ولكنْ دونَ المعــالي حِــجــابُهْ

(٧) **وقال المتنبي يمدحُ سيفَ الدولة ويهنِّئُه بشفائه من مرضٍ :**

المجــدُ عُــوفِيَ إذْ عُــوفِــيتَ والكَرَمُ ... وزالَ عـنْكَ إلـى أعــــدائِكَ الأَلَمُ

(٨) **قال رشيد أيوب(**) :**

قــدْ كنْتُ حــتى الأمسِ مُــصْطَحِــبــاً ... عــزمي ، شــعــوري ، هِمَّــتي ، لُبِّي

إنْ قُــمــتُ قــامَ الحُبُّ في أَثَرِي ... أوْ نِــمــتُ نــامَ الحــبُّ فــي جَــنْــبِــي

(٩) **وكتب جبران خليل جبران :**

كيف أخْسَرُ إيماني بعدلِ الحياةِ ، وأنا أعرِفُ أنَّ أحلامَ الذين ينامون على الرِّيشِ ليسَتْ أجملَ من أحلامِ الذين ينامونَ على الأرضِ ؟

جرِّبي قَلَمَكِ : عبري عما يأتي بأسلوب الكناية :

حالةِ إنسانٍ خائف . ... الصحراءِ .

حالةِ إنسانٍ أصابَهُ الفقرُ . ... الحمامة .

حالةِ إنسانٍ دائمِ السفر . ... الترحيبِ بقدومِ زائرٍ .

مكةَ المكرَّمة . ... التهنئةِ بنجاةٍ من حادثٍ.

(*) ابن الدُّمَيْنَةَ : من شعراء العصر الأموي . (**) رشيد أيوب : من شعراء لبنان في المهجر الشمالي ، توفي سنة ١٣٦٠ هـ .

الفهـــــرس

شركة المطابع الأهلية للأوفست المحدودة
National Offset Printing Press Ltd. Co.
الرياض - المملكة العربية السعودية